طريق النخيل

مجموعة قصصية

شريف محيى الدين إبراهيم

طبعة أولى

بسم الله الرحمن الرحيم

طـــــــريق النخيل
مجموعة قصصية

طريق النخيل - مجموعة قصصية
المؤلف : شريف محي الدين إبراهيم
الناشر : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٥٥٨٢

إهداء،،،

إلى أبى،،

نـهر العطاء المتدفـق.

شريف ....

نـــــورا

شعرها الذهبى الطويل، المنسدل حتى جيبتها المشقوقة بأناقة من الخلف.
قميصها الحريرى الشفاف ، وفتحة الصدر العميقة.
عبيرها الأنثوى الصارخ.
سحرتنى!!!
كانت تتحرك حولى ، في خفة العصافير ، ورقة الفراشات ، ودلال قطة شقية.
قلت لها:
- أحبك.
تظاهرت بأن أكوام المستندات تمنع عنها وصول صوتى .
همسست مكرراً :
- نورا... أحبك.
تشاغلت بفنجان الشاى ...ذوبت قطعة السكر وذوبتنى.
رشفت بشفتيها الملتهبتين رشفتين ثم همست ، وكأنها لم تسمعنى.
- عمل اليوم كثير.
كنت أتحرق شوقاً أن تلتفت إلىّ ، أن تبادلنى النظر ، أن يطول بيننا حديث العيون، ولكنها في كل مرة، كانت تتثائب كالقطة الناعسة، متظاهرة بالتعب، ثم تفر بسرعة ببعض المستندات إلى مكتب صديقى شهاب في الطابق الأعلى.
كانت تصعد ، وتصعد ، ...وتصعد إلى أعلى !!!
***

كانت الحركة في المكتب لا تهدأ ....
الساعى ، الزملاء ، الرؤساء ، التليفون ، وكنت أنا أتوق إلى الانفراد بها.
جذبتنى من أعماقى إلى نورها... أمشى وكأننى أطير عبر أثيرها، أحلق في عبيرها.
قالت لى وكأنها تشكو :

- أمى ترانى جوهرة غالية ، لذلك فهى ترفض كل من يتقدمون لى ، وكأنها لا تبحث عن شريك حقيقى لحياتى، وإنما تبحث عن ذلك الذى بإمكانه أن يصون جوهرتها النادرة !!!

وصمتت هنيهة، جعلت تتطلع فيها إلى ملامح وجهى الذائب ألماً وعذاباً ، كانت تنظر إلى وكأنها تخترق أعماقى، ثم أردفت في جدية:

- لابد من الفيلا والسيارة، ورصيد في البنك يكفى لتأمين المستقبل.

نفضت يدى من جيبى الخاوى، ونظرت إليها والحزن يبتلعنى.
حين وضعت يدها البضة الدافئة فوق يدى ، تداعبنى في تبسط وكأنها صبى صغير ، كدت أغرق في بحر عينيها الزرقاوتين، الرائعتين ، العميقتين.
جلست إلى جوارى ، ووضعت ساقها المرمرية فوق الأخرى ، فانحسر الثوب القصير عن مساحة من الضوء الباهر....
حاولت أن أنبس بكلمة ، وعندما استجمعت نفسى لأقول لها :

- أنت الفتاة الوحيدة في صحراء وحدتى.

عندئذ دلف في عجالة صديقى شهاب ، وجعلت تتجاذب معه أطراف الحديث، تناوله بعض السندوتشات ، وتتسلم منه بعض

المستندات، تواجه مداعباته الجريئة بمزيد من الدعابات ، وأنا أنصت إليهما وأكاد أحترق.
" أنت لى وحدى ، لا تحادثى أحداً غيرى ، لا تضحكى لسواى."
وكانت هى تتحدث معه في سعادة بالغة ، وهو يؤكد عليها بصوت خافت: أنه لن يسبقها أحد في ركوب سيارته الجديدة.
يرتبان ميعاداً جديداً للقاء ، وأنا حائر تمزقنى كلماتهما ، تخترقنى كنصل سكين حاد ، ولم يكن يفصل بينى وبينها غير مسافة مرور الزملاء بين مكتبينا.
حاولت أن أقتحم حديثهما ، ولكنهما في كل مرة ، وببراعة شديدة ، كانا ينجرفان بعيداً عنى.
يداعبها ويلقى عليها بالنكات الفاضحة، وتنطلق هى على سجيتها في ضحك مثير ، وكأنهما يتعمدان معاً أن يحرقانى.

***

عندما جاءتنى يوماً في غير وضوح ، تعلن على حين غرة فتح باب قلبها ، نظرت إليها طويلاً وقد داهمتنى المفاجأة !!!
كانت تبدو ، وكأنها تعود إلىَّ، تعود من سماوات الحلم البعيد.
حدثتنى عن الحياة ، والظروف الصعبة، ثم همست في مكر:
- أنا أعلم أنك تمتلك شقة صغيرة ، ترى أين موقعها ؟
سألتنى عن كل شئ يخصنى ، وهى في الحقيقة تعرف كل شئ عنى.
كنت مشدوهاً ، وكانت هى قد طفقت تتحدث عن طلبات أمها وشروطها، ولكنها أردفت فجأة قائلة:
- لكن في النهاية ، المهم رأى أنا.

وفى نهاية حديثها ، دعتنى ولأول مرة إلى بيتها، لحضور حفل عيد ميلادها !!!

.....قبل أن أغادر المكتب، جاءنى صديقى شهاب ليدعونى إلى حفل زفافه !!!

وفى عجالة فضضت كارت الدعوة ، وجعلت أبحث بعينى عن اسم العروس.

كانت زميلتنا التى تجاوره في الطابق الأعلى !!!

تطلعت إلى الدعوتين بمزيج من الحيرة والدهشة ، كانتا مزيلتين بتاريخ واحد هو نفس تاريخ اليوم ، دعوة عيد الميلاد ، ودعوة حفل الزفاف !!!

وكنت أشعر بنورا تسقط من سماوات الحلم البعيد ...

إلى أسفل ،

إلى أسفل ،،

إلى أسفل.

ولم أذهب إلى حفل عيد ميلادها ، ولكننى ذهبت إلى حفل زفاف صديقى شهاب.

أشياء باقية

كانت الناس تتطلع إلى في تعجب !!!
وكنت مشدوهاً حائراً ...
لم أكن ميتاً ، هذا ما أستطيع أن أؤكده.
إنني أثق تمام الثقة أن هذا العالم ليس وليد اللحظة ، وأن كل ما أفعله الآن قد فعلته من قبل عشرات المرات، ولكن في هذه المرة يبدو لي الأمر وبعد طول الزمن وكأنه يحدث لأول مرة.
إن الأشجار تكاد ترقص فرحاً ، والطريق يتلوى بي وكأنه يداعبني ، والنسوة يمضين في الطرقات يختلن بملابسهن الزاهية الملونة... طوفان من الألوان يداعب عيني وكأنني قد صرت طفلاً صغيراً .
أقسم أنني لست بمجنون يداعب الألوان والزهر والبشر ولكنني أقسم أيضاً أنني حر..
حر في طعامي...في ثيابي...في حديثي ...في تجوالي ...حر في نومي وصحوتي.
خلف أسوار السجن تعلمت أشياء كثيرة.....
حيث يتضاءل هناك كل شئ من أجل الغد ...فقط أن يأتي الغد ...
فأنا لم أكن سوى مجرد رقم مهمل خلف جدران السجن المزرية.
قد تتساءل عن السبب ؟ ولا أحد غيري سوف يجيبك.
إنها امرأة قتلتها بيدي بعدما أوشكت كل شموع الحياة من حولي أن تنطفئ.
وبالتأكيد ستظن بها الظنون بل وستتسرع قائلا :
- جزاء الخيانة هو القتل.

فلتتوقف ، ولتعلم أنها أشرف وأجمل امرأة على وجه الأرض.. في ابتسامتها يشرق نهاري وفي سواد عينيها تتعاقب ليالي عشقي الطويلة الساحرة.

- ولكنك قتلتها !!!
- نعم قتلتها.
- ماذا حدث؟!
- فقط قتلتها.

تريث ...وسأخبرك بالحقيقة كلها...
إن صاحبة القلب الذهبي كانت مريضة طفت بها على كل الأطباء، ولكن بلا جدوى من شفائها ، أو حتى مجرد الحد من آلامها.
وللمرة الأولى وجدتني عاجزاً عن مشاركتها في شئ ...أي شئ .
في الكلمة ...في المسكن ...في النوم ....في الاستيقاظ...في الحب ...في الحياة.
ولذلك كان قراري الأخير أن نتشارك معاً المشاركة الأبدية.
إنني عندما ضغط على(زناد) المسدس لم يكن هناك سوى اللون الأحمر ، وعندما ضغطت ثانية كان المسدس مصوباً إلى رأسي، أرجوك لا تتذمر أو تغضب.
إنني أكاد أسمعك تصيح :

- إن هذه لمجزرة...إنك لسفاح مجرم.

ولكنني أقسم لك أن هذا هو ما حدث، وبعدها لم أجد نفسي سوى نزيل في مستشفى للعلاج.

- وداعاً ...

هكذا قالت لي حبيبتي قبل أن ترحل ولكنني صحت بها في ألم :

- لا تقولي وداعاً إننا معاً حتى في الموت.

- أرجوك ضع حداً لآلامي ، ولكن لابد أن تبقى ...من أجلى لابد أن تبقى.

وبقيت !!!

بقيت كرهاً أو طواعية، فالنتيجة واحدة ، ولكن ثمة سؤال:

- ترى هل بقيت من أجلى أنا أم من أجلها هي ؟!

وفى السجن تعلمت ألا أكرر المحاولة فهناك لا تختلف الأمور كثيراً أن تحيا أو لا تحيا، ولكن كل شئ يتضاءل من أجل الغد.. فقط أن يأتي الغد.

و هناك أيضاً تتردد العبارات تتداولها الألسن.

- يا بنى الحي أبقى من الميت.

حينئذ لم أفهم معنى تلك الحكمة المستهلكة ، وفقط الآن بدأت أدرك معانيها..

فقط الآن وفى تلك اللحظة التي أخطو فيها إلى الشارع...فأنا الآن حر ، ولازلت لا أصدق !!!

لا أصدق أن كل شئ في هذا العالم ، لازال يمضى وبنفس الطريقة الأزلية ، كسابق عهدى به..!!

وأنا أمضى في الشارع وحدي...هل تصدق ذلك ؟!

نعم أمضى وحدي بدونها.

آكل ..أشرب ...أضحك!!!

حتى الضحك بدونها لم يعد مستحيلاً ...صدقني لم يعد مستحيلاً .

كل شئ أفعله الآن ، قد فعلته من قبل عشرات المرات، نعم عشرات المرات من قبل ، ولكن بعد طول الزمن يبدو الأمر وكأنه يحدث لأول مرة.

مواجهة

للحظة ..
لبرهة.. لم يتمالك نفسه !!
أن يجد نفسه في هذا الموقف دونما سابق تمهيد أو إعداد ، ذلك ما لم يكن يتوقعه على الإطلاق!!!

- أنت أخر من يتحدث عن الخيانة.

هكذا قالت زوجته دون أن يتحرك في وجهها أى عصب وكأنها لا تعبأ بالأمر كله، ولكنه صاح بها في انفعال:

- أتعنين أنك قد خنتنى من قبل ؟!

أجابت في هدوء :

- الأمر برمته يرجع إليك أنت !!
- إننى لم أقصر يوماً في حقك كزوجة.
- ولكنك لم تمنحنى أية لحظة حب حقيقية.

في حدة :

- إذن فأنت خائنة.
- أواثق أنت من خيانتى لك؟!
- الأمر لا يحتمل الشك.
- لماذا تأخذ الأمر بهذه الحساسية المفرطة؟!

في انفعال شديد:

- أتريدين الوصول بى إلى حافة الجنون؟!

في هدوء مصطنع ، بعد أن تمددت على الأريكة المواجهة لـــه فانحسر الثوب عن مساحة كبيرة من ساقيها العاجيتين:

- ما أبحته لنفسك لا تحرمه على غيرك.
- إذن فأنت تردين الخيانة بالخيانة؟!

- إذا كنت قد خنتنى مع أعز صديقة لى فماذا تنتظر منى ؟!
- ومن قال لك أننى قد خنتك معها ؟

تتململ ، تتثاءب كقطة ناعسة، تتقلب على الأريكة ، تعطى ظهرها له كاشفة عن مساحة كبيرة من جسدها البض، تهمس:

- إننى أعرف جيداً مدى تعلقك بها، ولا أستطيع أن أنسى قط كل نظراتك وهمساتك الحالمة نحوها...إنك لم تترك المسكينة حتى أوقعتها في شباكك .
- إذن فأنت تلتمسين لها العذر.
- رجل وسيم مثلك ، له أسلوبه الجذاب في التعامل مع النساء، متحدث لبق ، له حضور قوى، وتأثير طاغ على كل من حوله، عندما يسخر كل قدراته للإيقاع بامرأة مطلقة ..وحيدة، حائرة، ضائعة ...عندئذ ماذا تنتظر منها سوى أن تقع في شباكه.
- ولماذا لم تفترضى أنها هى التى أوقعتنى في شباكها؟

تشملهما غاشية من سكون مريب ، بعدها يستطرد قائلا :

- رجل مسالم مثلى متزوج من امرأة متسلطة مثلك ، تضع رأسها برأس زوجها، عندما تظهر في حياته امرأة تمتلك كل هذا السحر من الرقة والنعومة عندئذ ماذا تنتظرين منه؟!
- إذن فأنت تعترف بأنك قد خنتنى معها؟!
- حتى وإن كنت قد فعلت ذلك فإن هذا الأمر لا يعطيك حق خيانتى .

تنهض من على الأريكة، تقف مواجهة له، تحرك كلتا يديها في انفعال بالغ:

- لماذا ؟!... لماذا يتعامل الرجل مع المرأة على اعتبار أنها مخلوق أدنى منه في القيمة، لماذا يبيح الرجل دائماً لنفسه ما لا يبيحه لأية امرأة أخرى؟!

يمد يده المرتعشة إلى كوب الماء الموضوع أمامه على المنضدة ، يتجرع كل ما به من ماء دفعة واحدة ، يصيح بها في ضيق شديد:

- أريد إجابة واحدة ، واضحة ، صريحة: هل خنتنى؟!

في هدوء مفرط بعد أن عادت إلى أريكتها المفضلة تتقلب عليها وقد انحسر الثوب عن معظم جسدها:

- الإجابة أنت تعرفها جيداً : إذا كنت أنت خائن فأنا مثلك تماماً .

تراجع

قالت لى :
سأرحل !!!
بكيت ، صرخت:
- أرجوك لا تتركينى لوحدتى.
همست في لا مبالاة:
- نحن فقط أصدقاء.
كيف لى أن أتحمل فراقها ؟! !!!
كيف لى أن أتحمل هجر امرأة تبدو كبركان يتفجر من الجمال والأنوثة؟!

***

وعادت بعد فترة ليست بالقصيرة !!!
عادت كصديقة حميمة.
قال لى صديقى في انبهار شديد:
- إنها فاتنة.
وقلت له في هدوء:
- اعتقد ذلك.
عندما عرفتنى بأبيها وأمها وأخيها ، قلت لها في صراحة لا تخلو من جرأة:
- أبوك عديم الشخصية، وأمك سليطة اللسان ، وأخوك ساذج . .
نظرت إلى في دهشة ، سألتها :

- ماذا تريدين ؟

وقالت لى في تعجب:

- هل هناك عروسة بدون شقة ، ومهر ، وشبكة ؟

قلت لها في حسرة :

- أنا فقير.

قالت لى بسرعة :

- الفقر ليس عيباً ، والصغير لابد أن يكبر .

طلبت منى ألا أقطع اتصالى بها ، ولكننى قطعت كل وسائل الاتصال ، حتى جاءتنى يوماً في بيتى وسألتنى:

- ماذا ستفعل بعد ذلك ؟

وقلت لها متصنعاً الدهشة:

- أنا لا أفهم ...ترى ماذا تقصدين؟!

- بل أنت تفهم جيداً .

هربت منها إلى حديث أخر ، صاحت بى وهى تبكى:

- أنا أحبك.

نظرت إليها في لا مبالاة ثم همست:

- نحن فقط أصدقاء.

الأميرة والصعلوك

في القاعة الواسعة بالقصر الكبير ، كانت الأميرة تجلس على كرسيها الفخم، فستانها الطويل محلى بالجواهر الثمينة ، تاجها الذهبى الموضوع فوق شعرها الناعم الطويل يزيدها بهاء وجمالاً.
حارساها رجلان شديدا السمرة، عاريا الصدر ، يتابعان الموقف في حذر لا يخلو من شغف .
أحد الرجال من الصعاليك يقف في منتصف القاعة الملكية أمام الأميرة وهو يردد في حدة:

- أنت تلعبين بالنار.

الأميرة:

- أية نار يا فتى؟!
- تحاولين حرق كل من حولك.
- كف عن تلك العبارات ، كبيرة الحجم.
- أحذرك يا أميرة ..فأنت لن تحرقى أحداً سوى نفسك.

في غضب:

- بل سأحرقك أنت .
- أخيراً اعترفت بأنك تحاولين حرقى.

في دهشة:

- ولماذا ؟! لماذا أحاول حرقك؟!
- هذا السؤال توجهينه إلى نفسك، وليس إلىّ أنا .

في غرور:

- أنت تحبنى.
- هكذا أتوهم.

- ولأنني لا أبادلك نفس الشعور ، تعتقد أنني سأحرق كل من حولي.
- حبي لك هو الذى منحك كل لحظات السعادة الحقيقية .
- ليس ذنبي أنني لم أحبك.
- أنا لم أطلب منك يوماً أن تحبيني .
- ماذا تطلب إذن ؟
- أن تكفى عن اللعب بالنار.
- إذن فلتبتعد عني.
- الآن تطلبين مني هذا ...كفاك غروراً .
- وأنت كفاك تطفلاً ودع حياتي لي أفعل بها ما أشاء.
- سأتركك ولكن !!
- ولكن ماذا؟!
- لابد أن أريك حقيقة نفسك.
- لا تنس أنك مجرد صعلوك .. واحد من ألاف الرعايا.
- إذا كنت أميرة تحكم شعباً بأكمله ، فأنا أرعى الفقراء من هذا الشعب.
- فلتكن إذن مع رعاياك أيها الراعي النبيل.
- ماذا تقصدين؟!
- لا تصور نفسك على أنك فارس شجاع أت من غياهب العصور.
- أنت مجرد امرأة!!
- امرأة تبحث عن رجلها الحقيقي.
- ومن قال لك أنني لست برجلك الحقيقي؟!
- أنت مجنون.

- صدقينى المشكلة هى ليست كونك أميرة، ولكن كونك امرأة.
- والآن ...؟!
- الآن أنت تتوهمين أنك تحبين شخصاً آخر.
- لماذا؟!
- لأنه أمير مثلك .
- ألهذا فقط تظن أننى أحبه؟!
- أمير وسيم الشكل ، غنى ومن عائلة عريقة ، ولكن ؟!
- ولكن ماذا ؟
- ....
- إنك ترهقنى بحوارك هذا وتبدد وقتى الثمين.
- عجباً ...مولاتى التى طالما أمتعتها كلماتى وانتشت سعادة وطرباً للقائى لا تستطيع الآن أن تحتملنى قليلاً !!!
- وقتى الآن ليس ملكى.
- ملك لهذا الأمير؟!

في قسوة :

- نعم .
- وأنا ...!!!
- ستبقى كصديق.
- أنت شديدة القسوة.
- وأنت شديد الطموح، ألا يكفيك كونك صديقى الحميم ؟!
- الحب شئ آخر .
- ماذا تقصد ؟!
- أنت سافلة.
- حذار من الخطأ ، ولا تنس مع من تتحدث.

- أنت مجرد امرأة تافهة.

تنهض الأميرة من على كرسيها الوثير ، بينما يتابعها حارساها بعيونهما البراقة، تهمس في غضب:

- أيها الصعلوك، لا تنس أنك تتحدث مع الأميرة.

يتقدم أحد الحراس إليها وقد علا التوتر ملامحه ، بينما يظل الآخر عند الباب..

تشير الأميرة إليه أن يعود إلى مكانه.

- لا تظنى أننى أخشاك ، فأنا لن أصمت مثل كل مرة كنت تنتهكين فيها كرامتى.

تهمس الأميرة بعد أن تقترب منه:

- ماذا حدث لك ؟
- لقد بدأت أراك على حقيقتك؟
- منذ متى ؟!
- منذ رأيتك تعطين كل الرجال ، ماكنت أتوهم أنه منحة خاصة لى ، أو هبة من حبيبة إلى حبيبها ، أو حتى من مجرد امرأة تدرك أنها تتعامل مع رجل يبادلها بعض المشاعر الجميلة.

ينظر الحارسان إلى بعضهما في خبث ، وقد علت ملامحهما الدهشة ...تهمس الأميرة في غضب:

- أى أنك كنت تعلم ، ولكنك لم تكن تجرؤ على مواجهتى ، حتى رأيت الأمير وأدركت أنه ليس مثل كل سابقيه من الصعاليك وإنما هو رجل يحمل في عروقه نفس الدماء السامية التى تسرى في عروقى وعروق أجدادى.
- بل هى دماء نجسة ، لا تستحق سوى الهدر.

تنظر الأميرة إلى حارسيها وقد شرعا في رفع سيفهما ثم تهمس:

- لن آمر بقتلك!!
- لماذا ...لماذا وأنت تستطيعين قتل الشعب كله وليس قتلى أنا فحسب؟!

تتحرك الأميرة إلى القاعة الداخلية وهى تردد:

- لأجل كل ما كان بيننا لن آمر بقتلك ، ولن ألقى بك حتى في غياهب السجون ، بل سأتركك حر الحركة.

يبقى الصعلوك في مكانه بينما يتابع الأميرة بعينيه حتى تختفى في الرواق الداخلى.

يهمس في حسرة:

- ومن قال لك أننى حر الحركة؟؟!

ينظر الحارسان إلى بعضهما البعض في دهشة شديدة بينما يستطرد الصعلوك في ألم :

- من قال لك ذلك يا حبيبتى ؟!!

هو وهى

فـى اغراء مغلف بحرص مفرط ، باغتته بفتنة شابة فـى ريعـان الصبى ... فهوى فى لهيب العشق مشتعلاً.
حاول أن يهرب، أن ينجو بنفسه من سحر شفتيها... فغرق منتحراً فى بحر عينيها.
خر على ركبتيه يطلب العفو، أو السماح بالولوج إلى نار جنتها !!!
غادرها و(هو) لا يعلم ماذا تريد منه ؟!!
كان فى بدء العقد الخامس إلا أنه كان يبدو كشيخ هرم ، بكل ما يحمله فوق ظهره من أعباء عمله فى التجارة وتقلبات السوق، وكذلك مشاكل بيته و زواج ابنته، ومرض أمه العجوز.... كان يتفانى حباً فى خدمة كل من حوله، يقدم العون والنصح، يمنح خبراته لكل من يطلبها، حتى منافسيه فى السوق!!!
كان يرعى العديد من أقاربه وأصدقائه ومعارفه ...ينفق على العديد من البيوت ... . إيماناً منه بأن الجميع يجب أن يعيشوا وأن الرزق هو من عند الله.
و(هو) أيضاً لم يرد يد محتاج قط.
عندما هام بها عشقاً بدا كشاب فى العشرين من عمره.
وهبته قطرات من فتنتها، فلم يرتو و ازداد عطشه حتى هوى محترقاً فى محراب جمالها .
كلما حاول الهروب من وهج إشعاعاتها أخذته إلى أماكن مبهرة لم يرتدها من قبل...
ساحت معه وبه فى دروب سحرية وأماكن غامضة زلزلت كل كيانه .
طرق جميع أبواب فتنتها....استأذن كل حراس جمالها...
أبت(هى) أن تفتح، طلب المزيد..

همست في دلال : لا... .... أنا وحدى و لا أحد سواى.
قال : لا أفهم !!!
قالت فى أنوثة متفجرة: أنا لا يكفينى نصف رجل.
أضحت هى كل عالمه ..... لم تر عيناه سواها...!!!!
طلق أم ابنته الوحيدة دونما سابق تمهيد... دون أن يفتح حتى معها باباً للخلاف، ليكون مبرراً وحيداً للانفصال....كتب عقد الشقة باسمها وقدم لها سيارة فاخرة كهدية لحفل العرس، إلا أنها لم تتنازل عن شرط أن تكون العصمة بيدها.. وحينما كان يسألها عن سر تمسكها بهذا الشرط كانت تردد:

- لا أمان للرجال ...قد تظهر فى حياتك امرأة أخرى وتتركنى مثلما تركت زوجتك.

كان يقدر تجربة فشل زواجها السابق وما مرت به من ظروف قاسية.
وحينما تزوجها أغرقته فى بحر هادر من العسل .
كان تمنحه إحساساً خاصاً جداً لم يشعر به مع أى امرأة سواها .
وكان (هو) يعطى بسخاء غير عابئ بنزيف صحته وأمواله، وإهماله لتجارته، و لكل المحيطين به من أصدقاء ومعارف وأقارب، ولم يستمع لصوت واحد منهم...
كان يحسبهم يستكثرون عليه سعادته...يستكثرون عليه أن يعيش لأول مرة لنفسه .
بدد المبلغ الذى كان يدخره لزواج ابنته....أهمل أمه... تركها للمستشفى الحكومى تنتظر دورها فى إجراء الجراحة.
عندما تكاثرت عليه الديون باع مكتبه، وحينما طلب منها بعض الحلى تعللت(هى) بمدى تعلقها وارتباطها الشديد بكل شئ قد أعطاه لها ... **أما السيارة فلها معها ذكريات جميلة!!**

طلب منها بيع الشقة الفاخرة بكل محتوياتها، ليشتريا شقة صغيرة وليستغلا بقية المبلغ فى مواجهة تلك الأزمةالطاحنة التى يمر ... على أن يعوضها فى المستقبل بخير منها....
وحين أحضر المشترى وطرق الباب لم يجدها !!!
كانت(هى) قد حزمت كل حقائبها وغادرت الشقة، بعد أن ... بمعرفتها (هى) تاركة لـه ورقة صغيرة بطلاقهما!!!!!! دو... تقدم له أى تمهيد أو خطأ وحيد قد أقترفه فى حقها.!!!
ولم يتحمل(هو) الصدمة.. سقط ....
حملوه إلى المستشفى ...كانت حالته خطيرة، كمن يتأرجح ... حبل رفيع بين ضفتى الحياة والموت .
والتفوا جميعاً حوله .. ..أمه التى خرجت من المستشفى الحـ... .. أصدقاؤه وأقاربه ومعارفه، وشركاؤه فى العمل، بل ومن... فى السوق ...و حتى ابنته التى تزوجت دون عون منه..ولـ... أحد يتوقع أن تحضر أم ابنته إلا أنها هرعت إليه ملهوفـ... تتركه حتى تماثل تماماً للشفاء..تعاملت معه على أنه فى ... ويجب أن تقف إلى جواره، وأن ما حدث قد حدث.... فهى ... نزوة، أو (هى) فترة كان مريضاً فيها !!!
لم تفكر فى الذى فعله بها، ونسيانه وجحوده لكل ما قدمته لـ... تحملته معه من عناء فى بدء حياتهما حتى يصل إلى ما وصـ... وعندما أفاق من غيبوبة المرض لم ير أحداً منهم!!!
كان يبحث عنها(هى) فى كل وجه يراه...الطبيبات والممر... وضيوفه من الزوار بل إنه بحث عنها فى وجه أم ابنته ...و... يجدها ساءت حالته كثيراً .

طمأنته ابنته بأن كل شئ على ما يرام ...وأن أصدقاءه قد جمعوا له مبلغاً لا بأس به ليقف على قدميه مرة آخرى،على أن يرده إليهم حين تسنح ظروفه.

لم يكن سعيداً ...أبداً لم يكن سعيداً!!!!!

ولكنه عاد إلى بيته وابنته وأمه وعمله...عاد إلى كل أصدقائه .. ومعارفه ، وأهله...

عاد...عاد إلى سابق عهده.... ولكنه لم يكن هو!!.. (هو) الذى يعرفونه جميعاً!!!

وفى فترة قصيرة،استطاع أن يسدد كل ديونه، وأن يسترجع كل أمواله التى خسرها فى التجارة.

!!!! و....!!!! و ظهرت (هى) مرة أخرى !!!

خافوا عليه جميعاً من عواقب الإنتقام .

- قد يتهور ويقتلها.

هكذا قالت ابنته وهى فزعة .

إلا أن زوجها طمأنها : على الرغم من كل ما فعلته به هذه المرأة إلا أنه رجل عاقل .

هرعوا جميعاً إليه، إلا أنهم حين طرقوا باب شقته فتحت (هى) لهم الباب !!!!

صاحت ابنته بها: ما الذى أتى بك إلى هنا.؟!!

إلا أنها أجابتها فى هدوء رهيب: أنا فى منزل زوجى ... أمك رحلت بغير رجعة.

وكان (هو) فى الداخل ينتظرها فى غرفة النوم ، صائحاً:

اصرفى كل من بالباب و عودى إلى بسرعة يا حبيبتى!!!

عبدالله

كان عزيز عبد المولى يحوم حول زوجتى أمل البدرى يود لو يداهمها ويداهمنى !!!
وكان قدرى أن أهرب ، أن أنتزعها من بين يديه وأنطلق نحو قلب البلدة:

- يا ناس !!! يا عالم ...انقذوا عبد الله بائع الخبز الفقير ، يا سكان البلدة ، انجدوا حبيبتى من عزيز ورجاله غلاظ القلوب.

البعض يحرث الأرض ، والبعض الآخر يعرض بضاعته أمام جمهور المشترين....وآخرون غارقون في إصلاح حافلة البلدة الوحيدة...
وأنا ....أصرخ ....أطلب النجدة...أهرول هارباً ، جاذباً أمل خلفى ... أحثها بدموعى ، بعجزى ...بقهرى ...بأعماقى الحزينة...
أحثها على مواصلة الهرب، مواصلة الاندفاع نحو قلب البلدة.

***

أنا ...
أنا لن أتكلم عن بلدتى النائية الصغيرة !!!
ولن أتكلم حتى عن عزيز عبد المولى بكل جبروته وقسوته وقوانينه الخاصة ...الخاصة جداً.
فأنا لا شأن لى بما يفعله حين يستولى على كل خيرات البلدة، ولا شأن لى أيضاً بما يفعله رجاله ، حين يدورون على البيوت الآمنة لجباية الإتاوات الباهظة.

قد ألمح في عيون الناس ، نظرة حائرة ، متعبة...وقد أراهم لاهين عن كل شئ ، ولكننى لن أتكلم عن أى شئ سوى ذلك الإحساس الرهيب الذى نزعنى من داخلى حينما هممت بذبح إنسان !!!

إنسان حقيقى من لحم ودم !!!

إنسان مثلى ، ومثلك ، بل ومثلنا جميعاً ، يحزن ويتألم.

هل هو الخوف ؟!

الخوف الذى يبدأ عادة ببعض التوجس، يبدأ في أعماقنا كنقطة صغيرة، سرعان ما تتضخم حتى تصبح وحشاً أخطبوطياً كاسراً ، لا هم له سوى أن يلتهم أشلاءنا.

***

أنا ......

أنا خائف ...أنا وحدى ، رغم الجموع الغفيرة ، المنتشرة في كل مكان ، وكأنها لا ترانى.

- **يا سكان البلدة ...لماذا لا تعيرونى أدنى التفاتة وكأن الأمر لا يعنيكم؟!**

يا سكان البلدة ...إننى واحد منكم ...قلبى هو نفس قلبكم الحزين، وحلمى هو عين حلمكم الوحيد ، للخلاص ، للحياة الآمنة المطمئنة.

أنا ....

أنا والخوف ، وحبيبتى تحتمى بى ، تضع صدرها على صدرى المشحون بالقلق، أسمع دقات قلبها المتوالية السريعة وكأنه يقفز من فيها رعباً وهولاً .

دلفت بها داخل حفل عرس...
كانت الأنوار متلألئة، والحشود كبيرة ، بينما تتلوى الراقصة في حركات مثيرة....تطلعت إلى المدعويين، كانوا جميعاً يتابعون الراقصة في شغف، تكاد نظرات عيونهم تلتهم جسدها العارى، المشتعل بالحيوية.
صرخت:
- يا ناس ...يا سكان البلدة...أفراد العصابة يمشطون بلدتنا شارعاً شارعاً ، وحتما سيصلون إلينا، وحتماً ستمتد أيديهم اللعينة إلى زوجتي أمل ....أمل حفيدة شيخكم الذى تعلمتم جميعاً على يديه وأنتم صبية.

أفراد الفرقة ، كانوا غارقين في عزفهم مع ذلك الطبال المحترف ، الذى كان يتلوى مع الراقصة في توافق غريب، وكأنه لا يبصر سواها ..
عندما جذبته بعنف ، ناولنى كوباً ممتلئاً بالشراب ، ثم عاد ثانية إلى دق طبلته في مهارة فائقة، حينما التفت إلى الراقصة ، صاحبة الجسد المثير ، رمقتنى بقسوة ثم أمرت حراسها أن يلقيا بنا إلى الخارج....
وفى الشارع كان كل شئ على حاله...حتى الصبية، أصحاب الملابس الملونة الزاهية ، قصار القامة ، الموزعون في جماعات صغيرة، في حوارى البلدة وأزقتها ، لبثوا على حالهم غير عابئين بصياحى، مواصلين لهوهم بتلك السيوف الخشبية التى دوماً يتصارعون بها في قتال عجيب ، لم ينته يوماً ليسفر عن منتصر أو مهزوم

***

كانت السماء ملبدة بالسحب ، والرياح تعصف بشدة، وكانت أمل متعبة....يتقاطر العرق الغزير من جبينها.
جذبتها داخل أحد المساجد الصغيرة ، و وقفت ألتقط أنفاسى المقطوعة...
شيخ المسجد ذو لحية بيضاء طويلة ...نظر إلى في لا مبالاة ، ولم يكلف نفسه حتى عناء السؤال ، مستمراً في تسبيحه ، بينما واصل العديد من المصليين ركوعهم وسجودهم وكأنهم جميعاً لا يروننا.
لمحت عزيز عبد المولى بكل جبروته وطغيانه وقد اقترب، لمحته من بين جموع المصلين، كان وحده دون أفراد عصابته، وابتلعنى الرعب...
نظرت إلى شيخ المسجد ذى اللحية الطويلة ، كان غير عابئ سوى بمسبحته الفسفورية ، نظرت إليه ثانية أستصرخه النجدة...لاحت في عينيه نظرة تشير إلى أحد أبواب الخروج الجانبية.

***

كنا نجرى ، ننطلق إلى خارج البلدة...وعزيز لازال يركض خلفنا، فوق جواده الأسود الضخم، ونحن نلهث من فرط التعب، وفى اللحظة التى أبصرت فيها نهاية الطريق...أدركت أن قوتى حتماً ستخور ، في تلك اللحظة لم أطلب العون من أحد ...لم أطلب منهم حتى أن يفسحوا لنا الطريق ، ولكننى لبثت في مكانى أنتظر قدوم عزيز.
لمحت مدية صغيرة كانت تضوى في يد أحد الصبية، ممن تجمعوا حولنا في غير انتظام.

وفى جسارة لم أعهدها قط في نفسى ، استدرت نحو عزيز.

***

كل سكان البلدة كانوا يرقبون الموقف ، والصبى صاحب المدية ، مافتئ يتطلع إلينا في توجس...وبكل ما يحمل صدرى من رعب ، اندفعت نحو عزيز لأسقطه من فوق جواده الأسود الضخم...كان عزيز مشدوهاً ، يقاوم في دهشة.

أمسكت به بيمناى ، ولويت ذراعه حتى كدت أهشمها...قاومنى بشدة، جذبته صوب الصبى ، الذى صرخت فيه:

- أعطنى المدية.

حينما سقط عزيز على الأرض ... وضعت حد المدية فوق عنقه، وضغطت....كان سكان البلدة يتطلعون إلينا لأول مرة في دهشة ، بينما أمل تنظر إلينا في فزع، ولأول مرة أرفع وجهى في وجه عزيز ...كانت نظراته حزينة ، مرعوبة ، حائرة !!!

هذا الوجه ، أقسم أننى لم أتوقع أن أراه قط!!!

- أ أنت عزيز عبد المولى صاحب القوانين الخاصة... الخاصة جداً .

***

الصورة لى الآن وأنا أهم بذبحه .....ذبح عزيز عبد المولى ، نفسه ، بعينيه الحائرتين الحزينتين، بعرقه الغزير اللزج....بملامح الفزع المرسومة على وجهه !!!

***

أنا ......

أنـا لا يعنينــي الآن الماضــي الغــارق فــي الوحـل ، أو حتــى آلام الحاضر المشتعلة، كما لا يهمنى في شئ الغد المحاصر بضباب كثيف.

مـا يهمنـى الآن ، وبالتحديد في تلك اللحظـة ، هو ذلك الإحساس المروع الذى كاد يعصف بى ، حينما هممت بذبح إنسان ....مجرد إنسان مثلى ومثلك.

***

وأنا ....

أنـا الـذى مارسـت الخـوف بكـل أشـكاله حتـى صـار أليفاً لـى ....يصاحبنى في كل سكنة أو حركة ، في عملى وراحتى، في نومى وصحوتى، يصاحبنى حتى في لحظات العشق أو الكره.

ولكن!!!

ولكن الأمر الآن أصبح مختلفاً تماماً ...فهذا النوع من الخوف لابد أن تمارسه بنفسك حتى تشعر به.

***

وتسقط المديـة مـن يـدى ، حين أدرك أن عزيز مجرد واحد من سكان البلدة ، الموزعين في كل مكان ، المنتشرين في كل الأنحاء ....ســـكان البلـــدة الصـــغيرة ، ذوى الوجـــوه الحـــائرة ...الحزينة....الخائفة.

الشيخ مصباح

خفض المعلم مصطفى من رأسه وتمتم فى صوت رزين :

- إنت عاوز إيه بالظبط يا معلم جعفر ؟!

كان الوقت ليلاً، والجو عاصفاً، والسماء ملبدة بالغيوم، وكان جل سكان البلدة فى دورهم، خشية أن يحدث ما لا يحمد عقباه بين رجال العصابتين.

سحب جعفر نفساً عميقاً من النارجيلة الموضوعة أمامه وظل محدقا فى وجه مصطفى الذى بدا كوجه قديس عجوز ..رشف مصطفى رشفة صغيرة من كوب الشاى الثقيل، الذى دفع به إليه أحد رجال جعفر، لتهدئة الجو المشتعل....جميعهم يحترمونه لما اشتهر به من حكمة وعدل ، كما أن معظمهم فى الاصل من رجاله، حتى جعفر نفسه هو أحد رجال مصطفى القدامى.. غير أنه خرج من عباءته منذ سنوات طويلة وكون لنفسه هذا الكيان الكبير، الذى سرعان ما اشتد عوده وزاع سيطه فى كافة البلدان .

بعد فترة من الصمت الثقيل قال جعفر فى قوة اضطربت لها قلوب الحاضرين:

- لازم نبقى إيد واحدة، وقسمة الحق فى الأخر هى إللى تعم.

وقال مصطفى فى حدة:

- إنت كمان طمعان فى ناس بلدنا ؟! مش كفاية عليك ناس بلدك ؟! .
- دا حقنا وهى دى الأصول.
- المفروض إنك بتحمى الناس وتحافظ على مالهم، تحكم بينهم بالعدل ،و توقف الظالم عند حده.

وتمتم جعفر فى عصبية بعد أن ألقى النارجيلة من يده :

- يا معلم، إنت مكانتك محفوظة، وهتكون برضه الكبير.

وصمت مصطفى هنيهة ثم أردف :

- اتقى الله .

إلا أن جعفر قال فى سخرية:

- الكلمة دى أنا عمرى ما فكرت فيها.
- خاف من بكره.
- النهاردة بتاعى أفكر ليه فى بكره؟!... جعفر مش ممكن يخاف أبداً.
- مفيش حد ما بيخافش ....أنا هأثبت للناس دى كلها إنك كذاب .!!.

ساد المقهى الاضطراب،كسا وجه جعفر حمرة خفيفة،تمتم بعض رجال جعفر: عيب كده يا معلم.

غير أن مصطفى نبس فى هدوء مؤكدا: أيوه كداب !!...إنت عارف الشيخ مصباح ؟!

وهمس أحد رجال مصطفى فى خوف: ده كان شيطان.

وأكمل مصطفى :هو ده المخلوق الوحيد إللى غلبك فى الشر.

- جرى إيه لعقلك يا معلم ؟! ده مات من زمان ... إنت عايزنى أقف لواحد ميت؟!!!!
- هوه ده بالظبط إللى أنا عايزه منك .

****

كانت السماء ترعد، والمطر ينهمر بقوة خارج المقهى، بينما لايسمع من حقول الذرة المجاورة سوى صوت الرياح، وهى تمر بين الأغصان المتمايلة فتصدر صوتا أشبه بالصفير.

نظر جميع الحاضرين إلى بعضهم فى دهشة بالغة حتى صاحب المقهى لم يمنع نفسه هو وصبيه من الاقتراب لشغفهما المفرط لسماع ما سيقوله المعلم مصطفى،الذى استطرد قائلاً:

- إنـت بتقـول إنـك مـا بتخـافش مـن أى حاجـة وإن كـل دى خرافات ... وأنا بقول إن مفيش حد هيقدر على شرك قد الشيخ مصباح ... بالعربى كده تقدر توصل لحد المدافن فى البر الثانى، وتدخل جوه قبره ، وتنهش عظمة رقبته بسنانك وتجيب لنا راسه.؟؟!

ساد الصمت المكان لفترة طويلة... جعل الجميع يتبادلون النظر إلى بعضهم البعض ،، ثم ما لبث أن صاح أحد رجال جعفر فى رعب: جرى إيه يا معلم مصطفى، إيه الكلام إللى إنت بتقوله ده؟

- معلمك مابيخافش يا حبيبى ..هو بيقول كدة ... !!!

همس جعفر فى هدوء بعد أن تطلع طويلاً إلى وجه مصطفى :

- أيوه أنا ما بخافش ..أنا موافق يا معلم مصطفى، بس إيه المقابل؟؟
- لو نجحت هاسيب لك البر ده كله .

لبث الجميع فى حالة ذهول حتى رجال جعفر أنفسهم، لم يكن بهم أحد يعتقد أن هناك إنسان بمثل هذه الجرأة، كما لم يدرك أحد أيضاً من رجال مصطفى أن الأمر سينحدر بهم إلى هذا المنعطف الخطير.

إن مصطفى كان يؤكد لهم أن جعفر لن يعود إلا مخذولا خائبا وعندئذ سيستطيع أن يملى عليه كل شروطه بل إنه سيلزمه باحترام الجميع وأن يرجع إليه هو شخصيا فى شتى الأمور ... إنه هكذا يكسر شوكته ويقى الناس جميعا من شره ...

العجيب أنهم جميعاً كانوا ينتظرون نتيجة هذا الرهان الغريب وقد إنتابتهم مشاعر متباينة من القلق والترقب، عدا مصطفى الذى كان يتناول نارجيلته فى هدوء الواثق من نصره.

عندما عاد صاحب المقهى إلى بيته أخبر زوجته بما حدث، وكذلك فعل صبيه.. وفى خلال سويعات قليلة ذاع الخبر بين سكان البلدة.

...المعلم جعفر يتحدى الشيخ مصباح ... صاحب المعجزات ... قاهر الجن والشياطين !!

تقريبا لا أحد منهم إلا وله معه حكاية فمنهم من شهده بنفسه وهو يستخرج المرض من جوف المرضى فى صورة قطعة سوداء تشبه قطعة الفحم .. ومنهم من شهده وهو يحرك قطعتين من قوالب الطوب فى حالة عراك حقيقى وذلك لغرض إذكاء روح الصراع بين شخصين ليظلا متخاصمين متناحرين لحساب مصلحة طرف ثالث .. ومنهم من استخدمه لاستمالة إحدى الجميلات وإيقاعها فى غرامه، أو فى التفريق بين رجل وامرأته بزرع بذور الكره فى أعماقهما حتى يصبح الواحد منهما وهو لايطيق النظر فى وجه الاخر.

الشيخ مصباح يحضر عظام الموتى من المقابر ويضيف اليها أشياء غريبة ثم يلقى بها فى طعامه ..... يخلط الدماء البشرية بخليط غريب من الأعشاب الشيطانية ليصنع شرابه المفضل.

بعضهم يقسم أنه قد رأه وهو يمشى فوق سطح ماء الترعة قبل أذان الفجر... والبعض يؤكد أنه لازال يظهر حتى الأن رغم موته ، بل إن البعض يقسم أنه قد رأه وهو يصعد إلى السماء...أشياء وأفاعيل أخرى كثيرة وعجيبة زعموا أنه كان يجريها باقتدار بعضها مدهش وجلها مرعب .

****

تحرك جعفر صوب مقبرة الشيخ مصباح ، وهو يفكر فى كلمات المعلم مصطفى ، وكيف أنه يتحداه بمثل هذه الخرافات، وانتابت

جعفر رهبة خفيفة حين بدأ يشعر بوحشة المكان وصمته الثقيل ... كانت السماء تسكب أمطارا غزيرة فى الحوارى ، والشوارع، والحقول الخالية من المارة أو حتى الدواب ... وكان جعفر يسمع صوت الرعد وهو يضرب بقوة بينما يتوالى البرق فى ظلمة السماء فيضيئها للحظات بنوره المبهر ....وتوقف جعفر قليلا يحتمى خلف بعض الأشجار من المطر .... لف كوفيته الصوفية الطويلة حول رقبته بإحكام شديد ، وطفق يفكر.....

أهو حقا لا يخاف .؟!

إنه فى عنفوان قوته وسطوته، محاط بالرجال والمال والسلطة، فلماذا يخاف؟! ومن ماذا يخاف؟

...إنه لا يعرف سوى لغة العنف والدم .ذلك السائل الذى يستطيع أن يلمس لزوجته بيده ،ويرى لونه الأحمر القانى بعينى رأسه، بل ويشم رائحته بأنفه، تلك الرائحة التى يستعذبها كثيرا وكأنها عطره المفضل. أما تلك اللغة التى يتكلمون بها فهو لا يعرفها.!! لا يؤمن بها .!! جعفر لا يؤمن سوى بنفسه، كأنه نبت شيطانى خرج من جوف الأرض فهو لا يعترف بأب أو أم لأنه لم يراهما أو يعرف حتى كينونتهما !!

إنه إنتبه فجأة فوجد نفسه ملقى فى خضم الحياة ... وجد نفسه بين رجال المعلم مصطفى كخادم يصنع ويقدم لهم الشاى ،أو يغسل لهم ملابسهم ذات رائحة العرق الكريهة ... تلك الرائحة التى لم يستطع قط أن ينساها حتى بعد أن استقل بنفسه وكون تلك العصبة من عتاولة المجرمين ...

نفض جعفر نفسه من غبار الذكريات وعاد ثانية إلى مواصلة حركته صوب المقابر ...

مر بين بيوت القرية وحقولها الممتدة حتى وصل إلى الترعة الكبيرة....

لم يعد يسمع أى شئ ،لا صوت نقيق الضفادع ولا وشيش الشجر وأعوادالذرة، ولا حتى صوت الرعد الذى سكن تماما.

عبر القنطرة الخشبية فوق الترعة إلى البر الآخر،ووجد نفسه بعد لحظات قصيرة بين مقابر البلدة

شعر جعفر برهبة شديدة لم يدر سر مبعثها وبدأ العرق يتفصد من جبهته ...

أحقا هنالك أرواح ... أشباح ؟؟؟!!....وإذا كان هناك عالم آخر كما يدعون، فبالتأكيد ليس هنالك صلة بيننا نحن الأحياء وبينهم أولئك الموتى.... إنهم مجرد جثث هامدة لا قيمة لها .... بل إنهم صاروا مجرد عظام نخرة وتراب تذروه الرياح ...

وبدأ يشعر بالعالم الكبير يضيق من حوله، وكأنه محبوس داخل غرفة صغيرة تكاد جدرانها تطبق على أنفاسه .... كانت خطواته بين المقابر ثقيلة مرتعشة ...وكان يشعر وكأنه لا يقوى على حمل نفسه ...إنه إحساس غريب مؤلم ملأ جوانحه.

إلا أنه صرخ فى عناد :إننى أنا الذى أصنع الخوف ... أنا الذى أبث الرعب بين القلوب ...إننى أنا الخوف نفسه .. فهل يمكن للمرء أن يخاف من نفسه؟!

ومضى جعفر فى ثبات مصطنع ...غير أنه شعر فجأة بصدمة مباغتة حين لمحت عيناه قبر محمدين الطيب .. ذلك الفلاح الذى قتله فى حقله فى وضح النهار بين زوجته و أبنائه الصغار، بعد أن رفض أن يترك زوجته له هو ورجاله، فما كان منه سوى أن قام بفصل رأسه عن جسده بضربة واحدة من ذلك المنجل الحاد الذى كان يقطع به عيدان القمح ...

مضى جعفر مهرولا ،مبتعداً عن ذلك القبر ..عاد المطر ينهمر من جديد ولم يكن فى وسع جعفر سوى المضى على عجل لقضاء تلك المهمة التى أدرك أخيرا أنها صعبة ... بل شديدة الصعوبة ..وقبل أن يصل جعفر إلى مبتغاه اصطدمت عيناه بمقبرة بدرية الغازية، تلك الفتاة الغريبة عن ديارهم والتى غرر بها حتى وقعت بين حبائله، وحبلت منه وبدأت تطالبه بما لا يطيق فألقى فى وجهها بوابور الجاز فاشتعلت بها وجنينها النيران.

إنه لايدرى بالتحديد ماذا قد أصابه لكنه الشعور بالوحشة .. بالضياع .. بالخوف....نعم بالخوف !

وفكر جعفر أن يتراجع إلا إنه أدرك أن ذلك سيعود عليه بالعار .. إذ أنه كيف سيرفع رأسه بين رجاله ... كيف سيحكم البلدة ....؟؟؟؟؟

وضغط على أعصابه التى أوشكت على الانهيار وأخذ يتحرك بصعوبة ....

حين التفت خلفه صدمته مفاجأة مذهلة!!!

كانت بدرية تقف عارية مشتعلة هى وطفلها بينما تتساقط قطع اللحم من سائر جسدها المتفحم، والفلاح الطيب يقوم بجمع قطع اللحم المحترقة محاولاً إعادتها إليها ، كان يتحرك بدون رأسه، رقبة فقط تنزف دماً غزيراً .. كان المنظر مرعباً.. وبدا سكان المقابر كلهم وكأنهم ينهضون من غفوتهم ويقتربون من جعفر الذى شلته المفاجأة عن الحركة ...كانت دقات قلبه تتسارع والعرق الغزير يمتزج بقطرات المطر وهو مشدوهاً، يشعر بنفسه تهوى إلى أعماق سحيقة.

****

عندما استيقظ جعفر من غفوته ...أدرك أنه كان مصاباً بنوبة عنيفة من الهلوثة... يبدو أن المطر والبرد قد أصاباه بالحمى .. تلفت جعفر حوله فى بطء كان كل شئ يرفل فى هدوء ...والأموات جميعهم فى نومهم ساكنون.
وتحرك جعفر ناحية قبر الشيخ مصباح ... كان القبر داخل غرفة مبناة بالطوب الاحمر ومغلقة بباب حديدى موضوع عليه قفل صدئ ..وبقليل من الجهد استطاع جعفر فتح الباب ودلف إلى داخل القبر الرهيب.
كان الظلام دامساً والرائحة لا تطاق، بل إن المكان كان يمتلئ بالثعابين والحشرات .
تذكر جعفر تلك الأفعال المروعة التى كان يقوم بها الشيخ مصباح ،وشعر بالخوف يعاوده مرة ثانية، ولكن فى هذه المرة وهو فى ظلمة القبر مع ذلك الساحر الملعون كان خوفاً من نوع آخر .
وتذكر تلك المقولة القديمة التى أطلقها مصباح قديما بين سكان البلدة حين أعلن لهم أنه وجعفر لابد أن يجمعهما مصيراً واحداً !!
وكانو ا جميعا يعلمون أن ما من نبوأة لمصباح إلا وتحققت !!
وشعر جعفر برعب شديد ...غير أنه دس يده بين عظام مصباح ونزع جمجمته من باقى هيكله العظمى وهم مسرعا وهو يتخبط من الهول إلى الخارج..
كان يشعر بأن النيران تكاد تلفح ظهره وبأن ثمة شئ يطارده ....وحين انطلق إلى الخارج ودفع بالباب الحديدى من خلفه شعر بيد مصباح تمتد قوية إلى عنقه تود لو تخنقه ..
صرخ جعفر طالباً النجدة........ ولا مجيب !!

إنهـا ليسـت وهمـا.... إنهـا يـد حقيقيـة تطبـق علـى رقبتـه.. تخنقـه ...حـاول أن يـوقظ نفسـه مـن الكـابوس.. أدرك أنـه لا يحلـم ولا يهذى!!

***

عندما تأخر جعفر فى العودة إلى رجاله ... نهضوا جميعاً يبحثون عنه وقد أشعلوا النيران ،والمشاعل فأضـاءت البلدة كلها ،الأمر الذى دفع بكل سكان القريـة إلى الخروج ليشـهدوا نتيجـة الرهان المثيرة .. وعند قبر الشيخ مصباح وجدوه ملقى على الأرض وبين يديه جمجمتة !!!

كـان جعفر ميتـا إذ أنـه بعد أن سحب بـاب المقبرة الحديدى من خلفـه.. انغلـق علـى طـرف كوفيتـه الطويلـة وهو لا يدرى، وكلمـا حاول التملص أو التحرك مرعوباً إلى الأمام كلما كانت تلتف حول عنقه أكثر وتشده إلى الخلف!!

هكذا قال لهم الطبيب...... ولكنه قال لهم أيضاً أنه لم يمت مختنقاً، وإنما مات بالسكتة القلبية!!!

العجيب أن سكان البلدة حينما حاولوا نزع جمجمة مصباح من بين يديه، لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ...ولم يكن هنالك من حل سوى أن يقطعوا يدا جعفر .!!!!

غير أن المعلم مصطفى اقترح عليهم أن يدفنوا المعلم جعفر مع الشيخ مصباح،،، أى يعيدوه إلى ذلك القبر الذى كـان يحـاول أن يهرب منه !!!!

الوجع

استيقظت في الثالثة صباحاً وفى أحشائي نار ملتهبة...
كانت وطأة الألم تتعالى بداخلى ...تحتوينى ...تعتصرنى حتى خلت أننى سأنفجر كبالون ضخم وتتناثر أشلائى في أرجاء تلك الحجرة الصغيرة، ذات الجدران المتهالكة، والأثاث الرث العتيق..
شعرت بالوحدة تتشبث بأعماقى وأحسست بالدم يصعد حاراً إلى وجهى ...طفقت وطأة الألم بداخلى تزداد حتى خلت أن جنبى يشتعل...
كانت قطرات العرق تنحدر ساخنة على صفحة وجهى فتكاد تحجب عن عينى الرؤية..
حين اصطدمت نظراتى التاهنة بمسدس أبى ، تداعت صورته أمامى بمسبحته الفسفورية ، التى لا تفارق يمناه وهو يقول لى بعد أن طوى سجادة الصلاة:
- مصر واسعة يا عبد الرحمن ولكنك حتماً ستجده.
قبل أن أهم بالخروج لمحت قطرات الدموع تطفر من عينى أمي..
جذبتني بين أحضانها ، نزعت نفسى منها ، قلت:
- يا أمى أبداً لن يضيع دم أخى.
وأخفيت مسدس أبى وقبل أن أنطلق إلى الخارج ، تناهت إلى سمعي بضعة كلمات لأبى ، كان يتمتم:
- احذر يا عبد الرحمن من أزقة مصر وحواريها.
بينما كانت الدموع تتدفق كشلال هادر من من عيني أمي الكليلتين.

***

في الخارج...

كان الجو عاصفاً ممطراً ، والطريق موحل طويل، يلفه وشاح من الوحشة والظلمة، ومن خلال الحقول الممتدة عبر خط الأفق ، لمحت شبحاً يستحث الخطى، أدركت أنه يحاول اللحاق بي ، كانت كتلة الضباب الجاثمة على الحقول لا تسمح لي بتبين ملامحه ، ولما اقترب مني ، تبينت أنها زبيدة ابنة عمي وخطيبتي.

قالت والحزن يغلف صوتها :

- أتفرط في سنوات الطفولة والصبا ؟! ألم تكن وقتها لعبة الموت على أشدها بين العائلتين، ورغماً عن ذلك كانت وشائج الصداقة بين ثلاثتنا متينة قوية.

قلت معارضاً :

- بل بيننا نحن الأربعة، أنسيت حمدان أخي؟!

في دهشة أجابت:

- أتقتل محمود ... صديق عمرك ؟!
- لقد كبرنا.

في ألم :

- أخوك حمدان كان يحلم بتوقف نزيف الدم.

في إصرار :

- وماذا كانت نتيجة حلمه ؟! لقد قتل في الليلة التي كنت ستزفين فيها أنت إليّ.

انهارت زبيدة على الأرض ، أمسكت بقدمي في عنف ، ثم صاحت في توسل:

- أنسيت كل ما تعلمته في الجامعة؟! استحلفك بالحب الذي بيننا أن تعود إلى بيتك.

وهمست في هدوء بعد أن نزعت قدمي منها:

- بل أستحلفك أنا بالعار الذي سيكلل رؤوسنا جميعاً أن تعودي إلى بيتك.

ومضيت في طريقي بينما كانت الدموع تترقرق في عينيها النجلاوين.

***

بين اليقظة والإغماء اختلط الخيال بالحقيقة المحمومة، فتراءت لي صورة أبي واضحة جلية... هو وحبات مسبحته الفسفورية التي لا تزال تهتز بين يديه المرتجفتين ، همس إليّ في حزن مفعم بالأسى:

- تماسك يا ولدى..
- ثلاث سنوات من البحث والعناء ، ثلاث سنوات طوال يا أبى أحاول فيها أن أحقق أملك ، وطوتنى أعاصير الحياة حتى أنستني كل شئ .. نسيت الحب ، الصداقة ، نسيت حتى نفسي، كل هذا حتى ترفع رأسك ، وتتقبل العزاء في أخي.

وتعالى الألم بداخلي يعصر أحشائي...

في محاولة يائسة حاولت أن أتحرك...... حاولت أن أبدد كتلة الضباب والألم الجاثمة على صدري ولكنها توحشت فابتلعتني.

حاولت أن أطلب العون ...صرخت ...ضاع منى صوتي ...تبدد تماماً.

***

فتحت عيني بصعوبة شديدة ...كانت كل الأشياء من حولي تتداخل... تناهت إلى أذني أصوات مختلطة لم أدرك كنهها ، تساءلت في أعماقي:

- أيكون هذا هو العالم الآخر؟!

وأحسست بالهلع يتملكني حين لمحت شبحاً يقترب منى...

تفرست في وجهه قليلاً ، ولكن الدوار العنيف لم يمكنني من تبين ملامحه، تملكني فزع رهيب ، وحيرة مشوبة بالدهشة، حاولت أن أتكلم ...أن أصرخ ...جمعت كل ما لدى من قوة ولكن عبثاً فلم استطع حتى أن أنبس بكلمة وأخيراً تكلم الشبح بعدما لمح علامات الفزع على وجهي:

- عندما صرخت ..صعدنا إلى حجرتك ووجدناك فاقداً للوعي فنقلناك إلى المستشفى.

شعرت بالطمأنينة تتسرب إلى أعماقي خاصة عندما تبينت أن التي تحدثني هي جارتي التي تسكن في الدور السفلي.

كانت الحجرة تمتلئ بالأشخاص ، تموج بحركة مضطربة، سريعة.

سمعت بعض الهمسات:

سينفجر مصر انه... الطبيب المناوب غير موجود...التليفون مشغول ...التليفون معطل...الوقت يمر...الحالة خطيرة.

***

بعد فترة من الزمن...شعرت بهواء بارد يلفح وجهي ، أفتح عيني برفق ...تشملني غاشية من نور...تتضح الأشياء من حولي رويداً رويداً ..

بضعة وجوه كانت تحيط بي ...قال أحدهم :

- الحمد لله ..لقد نجوت ....الزائدة الدودية كانت ملتهبة.

وتدخلت جارتي البدينة في فرحة حقيقية:

- البركة في الطبيبة استأصلت لك المصران الأعور.

قلت بصوت خفيض :

- أين الطبيبة لأشكرها.

وقالت لي جارتي البدينة بعد أن سوت من وضع ملاءتها على جسدها وربطت بإحكام عصابة رأسها وكأنها تتأهب للرحيل:

- ستحضر.

عندما حضرت الطبيبة ، رفعت عيني إلى عينيها وكانت صدمة مذهلة!!!

الطبيبة هي صفية زوجة محمود !!!

محمود الذي حملت المسدس من أجله سنوات ثلاث طوال .

ولأول مرة كان يمكنني أن أتفرس في ملامح وجه زوجة محمود ...كانت تحمل على شفتيها ابتسامة ملائكية تضئ صفحة وجهها.

أشارت إلى ملابسي المعلقة ، ثم إلى الوسادة التي أضع رأسي عليها.

رفعت الوسادة وأنا مشدوه حائر فإذا بالمسدس رابضاً هناك تحت رأسي !!

أحسست بالجرح يفغر فاهه....صرخت من الدهشة والألم .

تحسست صفية الضمادات الموضوعة على الجرح ...قالت:

- احترس يا أستاذ عبد الرحمن ...الجرح لم يلتئم بعد!!!

جواز سفر

فتح الباب ودلف مسرعاً إلى الداخل..لم يكن في ذهنه سوى جواز سفره، تمنى ألا يكون قد فقده للأبد.
الوقت يهرول هارباً من بين يديه.. بضع ساعات وتقلع طائرته ...قد يكون جواز السفر في جيب المعطف الذى ارتداه بالأمس، وقد يكون ملقى في إحدى حجرات الفيلا الواسعة.
كانت حيرته شديدة ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى دهشة مذهلة ، حين فتح باب غرفة نومه وروعته المفاجأة !!!
شروق زوجته الفاتنة ممدة على سريرها الوثير شبه عارية بينما يلوذ بالفرار أحد الأشخاص الذى بدا له من ظهره وهو يقفز من النافذة.
رغم توتره الشديد استطاع أن يسحب مسدسه وصوب نحو الهارب...
قبل أن يضغط على الزناد صاحت شروق في عصبية ، وهى تلملم شتات نفسها :
- عادل ...أتقتل طارق ..ابنك ؟!
سقط المسدس من يده ...كاد يتجمد من هول المفاجأة.
كانت سيارته الفارهة تنطلق صوب لا شئ وهو بداخلها حائراً حزيناً ، ممزقاً مئات القطع من أثر الموقف.
في لحظة تبدلت كل حياته ، وشعر في داخله بزلزال عنيف، كان يبدو وكأنه يهوى من قمة جبل عال إلى أسفل.
وبغتة تداخلت كل أشياءه ، تبعثرت...

لحظات الهبوط والصعود.... رحلة العمر الطويلة.... زوجته ليلى واصرارها الشديد على الطلاق بعدما تواتر إليها نبأ زواجه من فتاة تقارب في السن ابنهما طارق .

***

شروق الوجه الآخر المبهج من حياته ...عالمه الخاص من السحر والغموض المثير...حلمه الذى ينتشله من جفاء الواقع وفظاظته ليلقى به في واحة النشوة الرائعة...ترى ما الذى دفع بطارق في دروب شروق؟!

كيف تقابلا ؟!

كيف نمت بينهما تلك العلاقة الشائنة ؟!

شروق زوجته وحبيبته ، وطارق وحيده وفلذة كبده ...ظله وامتداده الذى يمشى على الارض..

***

كان الظلام دامساً والرياح تعصف بشدة ... وهو يمضى بين المقابر دون أن يشعر بالرهبة أو الوحشة وكأنه يسير بين قوم هو يعرفهم حق المعرفة...

حينما غادر عادل سيارته وأخرج مسدسه لم يكن أحد قط يعلم ما يدور بخلده...

عند قبر أبيه شملته غاشية من الماضى البعيد واحتوته صورة والده الموظف البسيط ومعاناته الشديدة في تربيته له وإصراره المفرط على أن يستكمل تعليمه العالي ، رغم ضيق ذات يده كان يؤمن بذكاء ابنه ويؤكد دوماً للجميع بأنه يستحق كل ما قد فشل هو في تحقيقه .

همس عادل لأبيه وكأنه يحادث نفسه:
صدقت نبوءتك يا أبى لقد حقق ابنك كل شئ ولكنه في الحقيقة لم يمتلك أي شئ.

***

حين رفع فوهة المسدس إلى رأسه وكاد يضغط على الزناد اصطدمت نظرات عينيه بشبح شخص يرتدى معطفاً أسود طويل ، ويغطى رأسه بقبعة حالكة السواد.
كانت أشعة القمر الواهنة تمتد لتنعكس على صفحة وجهه الذى بدا لعادل وكأنه أت من زمن سحيق.
وبالكاد استطاع عادل أن ينبس وقلبه يرتجف:
- من تكون يا هذا ؟!
ولكنه لم يجب واكتفى فقط بتغيير ملامح وجهه ، فغير عادل من سؤاله:
- هل مات أحد أقاربك؟
شعر عادل بالرهبة الشديدة حينما ظل الشبح صامتاً ، ولكن الشبح ما لبث أن نطق :
- أنا لا يوجد لي أقارب.
- إذن ما الذى أتى بك إلى هذا المكان ؟
عبث الشبح قليلاً بشعره ...استدار موجهاً وجهه المظلم المخيف إليه ثم قال:
- المشكلة فعلاً تكمن في الموت.
ثم أردف بعد أن اعتدل تماماً في وقفته مصوباً نظراته إلى عينى عادل بل إلى داخله:
- أنت لا تعرف المعنى الحقيقى للموت، معنى أن تنتقل من عالم الأحياء إلى ذلك العالم الآخر ..عالم الموتى الرهيب.

وصمت الشبح برهة ثم استطرد قائلاً في حدة:

- أنت لا تعرف معنى أن تصبح ميتاً .

شعر عادل بدوار شديد ... أدرك أنه يتحدث مع كائن غريب ..همس:

- تقصد موتك أنت أم موتى أنا ؟
- ليس ثمة فارق بين أن تموت أنت أو أموت أنا .
- تعنى أن الحياة مسألة نسبية.
- والسعادة والحزن ، وكل شئ فالحي والميت شخصان أحدهما ميت والآخر حي وكلاهما ميت بالنسبة للآخر، فعملية الحياة نفسها كما قلت أنت هي عملية نسبية، ثم ما أدراك إن كنا نحن الأحياء أو الموتى ، وما أدراك إن كنت أنا حي وأنت ميت؟؟!!

وهمس عادل وهو يحاول جاهداً أن يتخلص من نظرات عينيه اللولبية القوية:

- إن الموت في نظري يعني الانتهاء ...والانتهاء يعني الفناء.
- إنك هكذا تعنى أن الموت لا شئ ...لا تحاول يا رجل أن تهرب من الحقيقة ، من الواقع.
- ماذا تقصد ؟
- لا تحاول أن تعيش أسيراً لفكرة إحساسك بالظلم، يجب أن تعترف أن إرادة السماء لابد أن تكون عادلة، تلك هي بداية الطريق.
- أنا لا أفهم !!
- أن تكون ظالماً أو مظلوماً فتلك مسألة نسبية مثلها مثل الموت تماماً .

نظر عادل إلى الكائن المريب في دهشة ثم صاح :

- من أنت يا هذا؟!

ولكن الكائن المريب استطرد قائلاً :

- لكم دهست إناساً وحطمت إناساً ولم تكن تبالى سوى بتحقيق المال والشهرة.

بدأ عادل ينهار ، سقط على الأرض ، همس:

- أو ا تعرفنى ؟!
- تمام المعرفة، أنا أعرفك أكثر من حجم معرفتك لنفسك.
- ماذا تريد منى؟
- المواجهة...أن تواجه نفسك بالحقيقة ، لقد جعلت من نفسك في لحظة ذلك الإنسان المظلوم المقهور ، ونسيت أنك أنت الذى ظلمت نفسك وظلمت كل من حولك...كنت تبحث دائماً عن أى شئ يحقق لك الربح السريع ، غير عابئ بمصير هؤلاء المطحونين الذين امتصصت دماءهم ، ولم تفكر يوماً أن تستغل علمك الغزير ، وخبراتك الواسعة ومالك الوفير لتحقيق شئ ذى جدوى لهؤلاء الناس، وهم في الحقيقة الذين صنعوك..صنعوا اسمك ومالك وخبرتك..بل إن أقرب الناس إليك لم يسلم من إيذائك له.
- إذا كنت تقصد ليلى فبالتأكيد أنت تعلم أنها هى التى طلبت الطلاق.
- وهل يكون جزاء شريكك في الحياة أن يتجرع معك مرارة وقسوة الفقر في بداياتك وعندما يدفعك للأمام بكل ما يمتلك من قوة ، تلقى به ، عند أول منعطف وكأنك تتخلص من كل ما يذكرك بماضيك المؤلم.
- أنت تعلم جيداً أننى حاولت أن أبقيها معى بشتى الطرق.

- وزوجتك الثانية ؟!
- لقد قدمت لها كل ما لم تحلم به من أبهة ورفاهية ، لقد كنت أعاملها كأميرة من الأميرات.
- إنك تتناول الأشياء كلها من منظور مادى بحت حتى ابنك أقرب الناس إليك لم تستطع أن تكسب حبه ، واحترامه لك رغم كل ما كنت تقدمه له من مال.
- رغم أننى أحببت الجميع حباً صادقاً حقيقياً !!!

في سخرية:

- وما معنى حبك هذا؟

نظر عادل إلى الكائن المريب في دهشة ولم ينبس، ولكن الكائن المريب استطرد قائلاً :

- إنك تحب الآخرين لأجلك أنت ...إنك تحب كل من يتفق معك في الرأى والتفكير أو حتى في الظروف ...بل إنك قد تحب آخر لأنه يشبهك في الشكل أو لأنه يحمل اسمك أنت .

وصاح عادل في حدة:

- إن هذه ليست إلا أنانية ، كيف تدعى أننى أفكر في نفسي فقط ، في الحياة وحتى في الموت ؟!

ولكن الشبح واصل في قسوة:

- حتى شعورك بالألم ...ذلك الشعور الذى تشعر به الآن ومحاولتك للرحيل .. للهرب...هذا الشعور ليس من دافع حبك للآخرين وصدمتك فيهم ولكنه لأنك أحسست بغتة بأن أهم شئ في داخلك قد مات.

كانت نظرات عينى الكائن المريب تضعف رويداً ، بينما جعل صوته ينخفض وهو يردد في حزن بالغ:

- تلك هى الحقيقة...تلك هى الحقيقة.
وأصابت عادل رجفة شديدة حين تبدد الشبح وتلاشى في الظلمات !!!!
وفى بطء شديد وضع عادل يده في جيب معطفه ليدس المسدس بداخله...في تلك اللحظة اصطدمت يده بجواز سفره !!!!
ارتسمت على وجه عادل كل علامات الدهشة ولتزداد غرابته حين ينظر في ساعة يده الفسفورية فيجد أنه لازالت هناك بضع ساعات متبقية على ميعاد الطائرة ، تذكر عادل زوجته السابقة ليلى ..أدرك أن الوقت لم يمر كله بعد...
همس عادل لنفسه وهو يفتح باب سيارته:
لازالت هناك فرصة.

صعود السلم

(0)

تفحصني الرجل بعينيه طويلاً ،ثم صاح بي معلناً عن مفاجأة مذهلة،لا يصدقها عقل ولا تستوعبها أي قدرات أو حواس بشرية، وخاصة حواسي وقدراتي أنا!!!

أنا الدكتور/ بدوي جاب الحق أحد علماء الطبيعة والذي لا أؤمن سوى بالمادة!!

المادة فقط وكل ما يرتبط بها من مبادئ وقواعد علمية ، وما عدا ذلك لا أعرف!!

لا أفهم !!

لا أقبل !!

(5)

لم تكن المدة التي قضيتها في الخارج تتجاوز بضع سنوات ، وذلك في مهمة علمية لدى إحدى الجامعات العريقة، في تلك الفترة،انقطعت صلتي تماماً بصديقي رجل الأعمال :محجوب عبد الباقي!!!

إلا أنني فوجئت به يتصل بي إثر عودتي لأرض الوطن مهنئاً إياي على نجاحي في مهمتي، وخاصة في أبحاث الذرة ولما عاتبته على عدم اتصاله بي تلك المدة ..برر ذلك بقوله:

- أنا أسف يا صديقي، فور سفرك للخارج صدمتني سيارة في حادثة مروعة رحت على أثرها في غيبوبة طويلة،

ومـا أن تمالكت نفسـى إلا واتصلت بك.........إننـى أعلـم أنك مشغول فى تجاربك وأبحاثك العلمية ، ولكننـى أحتـاج مشورتك فى أمر غريب قد وقع لى !!!

كـان محجـوب فـى حالـة حيرة شـديدة، ولـم يكـن بوسـعى سـوى أن أستدعيه إلى بيتى، ولما طلبت منه أن يأتى إلىَّ صباحاً رفض ذلك متعللاً بارتباطـه بـأمور أخرى تعوقه عن الخروج نهاراً على أن يأتى إلىَّ ليلاً.

وفى جنح الظلام ،وبعد أن استقبلته ذلك الإستقبال الحار الذى عـادةً ما يتم بين صديقين حميمين سألنى :

- مـاذا تفعـل يـا صـديقى لـو أن أحـدهم اتصـل بـك طالبـاً مساعدتك على الرغم من كونك لا تعرفه؟!
- هذا يتوقف على نوعية المساعدة المطلوبة.
- لقد اتصل بى أحد الأشخاص وأخبرنى أنه حزين جداً لعدم استطاعته أن ينجد عائلته من الفقر والضياع على الرغم من كل مـا يمتلك من أموال ... ولمـا استفسرت منـه عن السبب قال لى: لقد وضعت كل أوراقى ومستنداتى ومبلغاً مالياً كبيراً مع أحد شركائى ثم سافرت فـى رحلـة طويلـة ، ولقد مـات شريكى هذا فجأةً بعد أن جمـع كل أشيائه فـى صندوق محكم ووضعه فى بدروم منزلـه والذى لا يعرف سره أحد !!!

ولمـا سـألته مـاذا تريد منـى بالتحديد ؟!...قـال فـى بساطة : أريدك أن تذهب إلى بيت شريكى، و تخرج الصندوق وتأخذ كل الأوراق والمستندات والأموال الخاصـة بـى ثـم تذهب بهم إلى زوجتى وابنتى.

كان محجوب يحكي لي ما دار بينه وبين ذلك المجهول من حوار في الهاتف، بينما كنت أنا أتأمل ملامحه التي صارت أكثر بهاءً وجمالاً عن ذي قبل وكأنه قد عاد شاباً كسابق عهدي به منذ سنوات طوال ، حتى صوته كان به صدىً عميق رنان.

حذرت محجوب .. قلت له : أنت رجل مال خبير بالسوق وبالحياة وتعلم جيداً أنه هناك العديد من الألاعيب التي تحدث من الآخرين.

- ماذا تقصد؟
- قد يكون وراء ذلك الأمر المريب أحد أعدائك من المنافسين.

وصمت محجوب هنيهة متفكراً ، إلا أنني أردفت قائلاً:

- أنصحك بألا تذهب إلى هذا المكان..
- ولكن الرجل...
- يا صديقي إذا كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول فلماذا لا يذهب بنفسه إلى ذلك المكان ويحضر أشياءه بنفسه؟
- بالفعل لقد سألته هذا السؤال ، ولكنه أجابني بأنه لا يستطيع مغادرة مكانه، على الأقل في الوقت الحالي.

قلت في دهشة :

- ولماذا قد اختارك أنت بالتحديد ، وقد كان الأولى له أن يتصل مباشرة بأهله؟!!
- هذا السؤال أيضاً قد أجابني عليه بقوله أنه لا يستطيع التحدث مع أحد سواي!!

كان خادمي العجوز قد أحضر قدحاً واحداً من شراب التوت ووضعه على المنضدة التي تفصل بيني وبين محجوب الذي قلت له:

- تناول عصيرك ودعك من هذا الأمر المريب.

إلا أن محجوب رفض حتى تناول شرابه المفضل، ونهض فجأةً مغادراً بيتى إلى الخارج.

(4)

مرت عدة أيام إلا أننى فوجئت بمحجوب يطرق باب معملى ليلاً ليخبرنى بأنه مازال يعانى من اتصال ذلك الغريب الذى يلح عليه مستعطفاً إياه بأن ينجد عائلته التى أضحت فريسة للضياع ، بل وأنه قد عرض عليه الأموال التى سوف يجدها مكافأة له، على أن يسلمهما المستندات !!!!

وعند هذه النقطة نظر محجوب إلىَّ نظرة طويلة ثم قال فى سخرية:

- إن هذا الغريب الأحمق لا يعلم أن الأموال لم يعد لها أى قيمة فى نظرى.
- وماذا قد فعلت؟ هل ذهبت إلى هذا المكان الغامض،رغم تحذيرى لك؟
- لا يا صديقى بل إننى رفعت سماعة التليفون واتصلت بنفس الرقم الذى كان يحدثنى منه ذلك الغريب.

سألت محجوب فى شغف وقد انتبهت كل حواسى:

- وماذا قد وجدت؟
- لن تصدقنى!! إنها مفاجأة رهيبة!!
- قل يا محجوب...ماذا حدث ؟ ..لقد جذبت انتباهى بشدة.
- لقد أجابتنى شابة صغيرة ، سرعان ما نادت أمها التى وبختنى بعنف لإعتقادها بأننى أسخر منهما، وذلك لأن هذا الغريب هو زوجها الذى مات منذ عدة سنوات...!!؟! أى أننى كنت طوال تلك المدة أتحدث مع إنسان ميت.

نظرت إلى محجوب نظرة طويلة، وقد اعترتني كل علامات الذهول إلا أنني سرعان ما تمالكت نفسي وقلت له:

- محجوب إنها مزحة..أليس كذلك؟!
- الأمر يا بدوى لا يحتمل أى مزاح.
- يبدو أنك متعب قليلاً ...كما أنك تعيش وحيداً ..لقد نصحتك مراراً أن تتزوج..
- ماذا تقصد ؟
- لا تقلق ..إن هذا يحدث معنا جميعاً ،ولعلك تتذكر حالتى كيف كانت حين ماتت زوجتى وابنتى فى حادثة المصعد تلك التى راحا فيها ضحية لإهمال بعض عمال الصيانة...إنهما لم يتركا لى سوى هذا الخادم العجوز.

وقتها كنت مذهولاً ...شبه غائب عن الوعى..لم أكن أتخيل أبداً أن ينسحبا هكذا من حياتى فجأة ودون سابق تمهيد...وجعلت أسأل نفسى فى دهشة: أحقاً قد ماتتا..إن الموت فى نظرى يعنى الفناء ..العدم.

ولكن كيف لى أن أقبل فناء أعز الناس وفقدانى لهما إلى الأبد؟؟!!

كنت أحياناً أسمع صوت ابنتى وهى تغنى لعروستها الصغيرة، بل وكنت أحياناً أجد هذه العروسة وقد تحركت من مكانها، كانت تختفى وتظهر فجأة بين جنبات البيت، بل ولقد تطور الأمر إلى درجة أننى كثيراً ما كنت أسمع همسات زوجتى فى أذنى وكيف أنها قد اشتاقت إلىَّ كثيراً، إلا أننى سرعان ما تمالكت نفسى بعدما أدركت أننى على حافة الجنون، وأن كل ما يحدث ما هو إلا مجرد أوهام وخيالات قد صنعتها أحزانى، وأننا لا يمكن أن نتقابل ثانية أبداً لأنهما ببساطة صارا عدم.

نظر محجوب إلى فى غضب ثم نهض متذمراً بينما كان يردد:

- أنا لست مجنوناً يا بدوى.

انصرف محجوب أيضاً هذه المرة دون ان يتناول ولو رشفة واحدة من كأسه المفضل.

(3)

بعد مضى عدة أسابيع من العمل فى قاعات المحاضرات والمعامل العلمية بين الطلبة وأساتذة الجامعة من العلماء ، كنت قد نسيت فيها موضوع محجوب حتى فوجئت به وقد حضر إلىّ فى بيتى وهو فى حالة مزرية من الخوف والهلع، ليطلب منى أن أرافقه فى رحلة الذهاب إلى ذلك المكان الغامض.

قال لى:

- لن تصدق ما حدث !!!
- .....!!
- لقد أعاد الرجل الإتصال بى ثانية!!

صحت فى دهشة:

- أى رجل؟ ..تقصد الرجل الميت؟!!!!!
- إنه يرفض الإعتراف بأنه ميت.. لقد كاد يبكى متوسلاً إياى بأن أنقذ زوجته وابنته.
- ماذا تقول يا محجوب؟
- هذا هو ما حدث وأنا الأن أمر بحالة شديدة من الخوف والهلع إننى حتى أخشى أن أرفع سماعة التليفون.
- إنه رجل ميت!!

- ولكنه يرفض الإقرار بذلك.يبدو أن الموتى لا يدركون أنهم ميتون بالفعل!!!

قلت فى هلع :

- إذا كنتَ تَريد أن تغامر بنفسك فليس من المنطقى أن أعرض أنا نفسى لأى حماقات قد ينتج عنها مشاكل نحن فى غنى عنها، وخاصة وأنت تعلم مكانتى العلمية الرفيعة فى مصر بل وفى العلم كله.

كانت الشكوك قد بدأت تساورنى فى الأمر كله حول امكانية تدخل إحدى الجهات الأجنبية فى ذلك الأمر فى محاولة منها للقضاء علىَّ ،وخاصة وأن مثل هذه الأمور تحدث كثيراً لأولئك العلماء المتخصصين فى نفس مجالى.

إلا أن محجوب انطلق يروى لى ما حدث له بعد أن تركنى فى المرة السابقة...قال:

- لقد عدت إلى البيت وأنا فى قمة القلق والحيرة ثم رفعت سماعة التليفون، والخوف يكاد يبتلعنى ،لأتصل ثانية بنفس الرقم و لتفاجئني تلك الشابة بصيحات الإستغاثة وبأن أمها مريضة وهى لا تعرف ماذا تفعل؟؟!

وبالفعل ذهبت إليهما فى عجالة بعد أن أحضرت معى أحد الأطباء الذى قام بإسعاف الأم منقذاً إياها من موت محقق، وبعد أن استيقظت السيدة العجوز من غيبوبتها شكرتنى كثيراً ، واعتذرت لى عما بدر منها فى المرة السابقة ، إلا أنها سرعان ما تذكرت ملامحى وتبين لها من خلال حديثى أننى ذلك الصبى الصغير الذى كان يقطن إلى جوارهما فى بدء حياتهما هى وزوجها الذى تعلق بى كثيراً وكان يدللنى ويعاملنى كابن له وخاصة وأنهما لم ينجبا ابنتهما هذه إلا بعد مرور سنوات عديدة.

وهنا قاطعت محجوب قائلاً :

- أى أنهما كانا يعرفانك.....لقد تبين لى الأن سر هذا الأمر .
- ماذا تقصد؟
- إنهما تريدان أن تستغلانك...إنها مجرد إحدى الألاعيب الساذجة التى قاما بتدبير ها لكسب تعاطفك معهما، خاصة بعدما علما بأنك رجل ناجح ولديك رصيد كبير من المال.

صاح محجوب بى فى قوة:

- لا يمكن يا بدوى...إن الفتاة رقيقة للغاية ..كما أن أمها امرأة عزيزة النفس، لقد رفضا حتى أن أدفع للطبيب أجره ، رغم كل ما يعانيانه من ديون ومشاكل ماليه قد تتسبب فى طردهما من بيتهما.
- يا عزيزى هذه مجرد حيلة منهما للإيقاع بك..وهذا فعلاً ما قد نجحت الفتاة فيه...رجل ناجح غنىولكنه وحيد...وفتاة صغيرة جميلة فى أزمة !! ماذا تتوقع أن يحدث بينهما؟!
- الأمر ليس هكذا يا بدوى؟
- يجب أن تعود إلى رشدك.
- إنهما فى حاجة ماسة إلى النقود، وبعض المستندات الهامة ضائعة منهما..بالضبط كما ذكر لى ذلك المجهول.
- ألازلت تريد الذهاب إلى ذلك المكان المريب؟!
- إذا لم تأت معى سأذهب بمفردى .

(2)

بالفعل لم أذهب مع محجوب بل حذرته من فعل ذلك مؤكدا له أنها مجرد حيلة وأنه عليه أن يبتعد عن تلك العجوز وابنتها،

وانصرف محجوب وهو فى حالة تردد شديدة بين مصدق ومكذب ...كان يعانى من عقدة ذنب كبيرة ناحية تلك العجوز المهددة ليس فقط بالطرد من بيتها، بل وبالموت بسبب عدم قدرتها على مواصلة العلاج وكذلك ابنتها تلك الفتاة الجميلة والتى تربعت على عرش فؤاده بمجرد أن رآها وتحدث معها .

(1)

........ومرت عدة أسابيع انقطع فيها محجوب عن الإتصال بى أو زيارتى تماماً!!!

ولما انتبهت إلى ذلك ساورتنى شكوك كثيرة نحوه وبدأت أشعر بتقصيرى فى حقه...إنه بالفعل قد يكون قد أصابه مكروه كبير!!

ورفعت سماعة التليفون محاولاً أن أطمئن عليه إلا أنه لم يجب...!!!

ازداد توترى وخوفى عليه..ارسلت خادمى اليه فى نفس عنوانه القديم إلا أنه عاد إلىّ قائلاً وكل علامات الدهشة ترتسم على ملامحه:

- لم أجده...بل لم أجد أحداً هناك مطلقاً.

ازداد قلقى عنفاً ...لعنت نفسى أنى تخليت عن صديق عمرى ، وتركته يذهب وحده إلى ذلك المصير المجهول.

كان عنوان السيدة العجوز والفتاة الجميلة لازال عالقاً فى ذهنى... ركبت سيارتى وتوجهت إليهما..ولدهشتى وجدت البيت والعجوز والفتاة !!...كنت حتى هذه اللحظة أحسبهم مجرد خيالات قد رسمها عقل صديقى محجوب.!!

ولكنهما تقفان الآن أمامى بشحمهما ولحمهما مرحبتان بى أشد الترحيب، وخاصة بعدما علما بصداقتى لمحجوب.
سألتنى الفتاة التى لم أر أجمل منها فى حياتى :
- أين محجوب؟!
هل هو الذى أرسلك لتطمئن علينا؟
..إننا لم نره منذ عدة أسابيع.
نظرت إلى الفتاة فى دهشة ثم همست:
- إننى أبحث عنه.
وتدخلت السيدة العجوز قائلة:
- لقد أحضر لنا كل المستندات الضائعة ... بل ومبلغاً كبيراً استطعنا به أن نسدد كل ديوننا وبعدها لم نره مطلقاً!!!
إذن لقد ذهب محجوب إلى ذلك المكان المريب، ووجد بالفعل صندوق المستندات والأموال...
ترى أين هو الآن .؟!
وأنا فى أشد حالات الحيرة ، قررت أن أذهب ثانية إلى بيته، ولكن هذه المرة بنفسى.
عندما غادرتهما كانت دموع الفتاة تبلغنى بأنها تنتظره وبأن ثمة ميعاد بينهما يبدو أن محجوب قد أخل به.

(0)

ذهبت إلى الفيللا التى يقطنها محجوب!!
كانت الأسوار عالية،والباب موصداً ، تفحصته جيداً، تبين لى أن القفل الحديدى الموضوع عليه قد علاه الصدأ..!!!.

إن باب البيت يبدو وكأنه لم يفتح منذ مدة طويلة...حتى الحديقة التي تحيط بالمنزل بدت بعض أشجارها جافة زابلة بينما البعض الآخر في نواحي متفرقة دون تهذيب أو عناية!!!
كان البيت يبدو وكأنه قد هجر منذ فترة طويلة.
صعدت درجات السلم القليلة ووقفت أمام البوابة الحديدية وأنا في دهشة من أمري.
ولما رآني أحد الجيران وأنا في هذه الحالة من الحيرة ، تقدم نحوي في ريبة ثم سألني:

- ماذا تريد؟
- إنني أبحث عن السيد /مجوب عبد الباقي صاحب هذه الفيللا.

تفحصني الرجل بعينيه طويلا ثم صاح بي معلناً عن مفاجأة مذهلة لا يصدقها عقل ولا تستوعبها أي قدرات أو حواس بشرية ، وخاصة حواسي وقدراتي أنا.
أنا الدكتور/ بدوي جاب الحق أحد علماء الطبيعة والذي لا أؤمن سوى بالمادة...
المادة فقط ، وكل ما يرتبط بها من مبادئ وقواعد علمية وما عدا ذلك ،لا أعرف!!
لا أفهم!!
لا أقبل!!
قال الرجل :
- ماذا بك يا هذا ؟! أتسأل عن رجل ميت؟!
لقد مات السيد /محجوب ، منذ عدة سنوات في حادثة سيارة مروعة !!!!

رقصة الموت

مدثر بغطاء الحزن المؤلم.
ملفوف بوشاح أسود..
بين الجموع الهادرة كان هناك..
وكانوا جميعاً حوله..
المكان يموج بالحركة الدائبة يضج بالبشر.
أبحث عنه أمد عنقى أتلفت حولى... المسافة بعيدة والطريق بيننا لا يزال كسابق عهدى به غير ممهد.
لمحته بصعوبة مفرطة..
طفقت أتفرس في ملامحه...كان منكسر الطول ...منحنياً ..مشدوهاً ..حائراً ..
ترددت قليلاً ولكننى سرعان ما عقدت العزم وطفقت أدفع بقدمى محاولاً أن أقترب.
وجعلت أناضل بين الجمع الحائرة...
داهمنى تعب شديد...تفصد من جبهتى عرق غزير، توقفت ألتقط أنفاسى.
بعد أن استجمعت بعضاً من قوتى تلفت حولى...تملكتنى دهشة بالغة حينما أدركت أننى مازلت في بداية الطريق.
تهالكت في مكانى...
احتوانى اليأس اللعين..
حين عاودتنى ملامح وجهه تماسكت...
تطلعت إلى أرجاء الطريق...
كانوا جميعاً حوله..بجانبه وكنت أنا بداخله.
دسست قدمى بين الجموع الحائرة ...

ثقيلتين ... ضعيفتين ...خائرتين ...حائرتين.
استجمعت كل قوتى وظللت ماضياً في طريقى ، أجاهد ..أزحف نحوه...
في الطريق حاولت أن أتبين ملامح كل من كانوا حولى.
كانت ملامحهم غامضة...شاحبة... باهتة...
البعض يدفع من حوله إلى الخلف.
والبعض الآخر يحاول الوصول إليه...
وثمة أشخاص تسير في الاتجاه العكسى...
حاولت أن أراهم...
تكثفت كتلة الظلام بيننا ...استحالت إلى ستار بينى وبين ملامحهم.
فقط كان يمكننى أن أرى وجهه من بين آلاف اللاوجوه.
بعد كفاح طويل باتت المسافة بيننا يسيرة ...
حينئذ رفع وجهه المنكسر ..
كان مذهولاً غائباً .
اصطدمت بشلال الحزن في وجهه وباغتتنى دمعه في عينيه...
تهاويت ...تهالكت.
ثمة أشياء تتحرك من حولى..تقترب ..تزداد اقتراباً ...
تتوحش ...تهاجمنى...
أخاف ، أنطوى على نفسى...ثمة يد تمسك بى تمتد حول عنقى، أدفن نفسى داخل نفسى..
تلقى بى ثانية إلى بداية الطريق.
جبال الوهن ترسبت في الأعماق...
كيف !!؟ كيف استطال الطريق هكذا؟!
الآن لابد أن أبدأ من جديد.
مددت يدى إلى الجموع..أطلب العون..

كانت يدى خائفة ...حائرة حزينة.
والجموع ماضية في طريقها لا تلتفت حولها..
كان البعض يضحك والبعض في البكاء منخرطين وكنت خائفاً .
حين تقابلت الأعين أذهلتنى المفاجأة..
تقلصت الأنامل .
تراجعت اليد منكسرة مذهولة..خائفة ...لا تعى ...لا تفهم...لا تستجيب.
أبحث عن وجوههم ..أين هى ؟!
أين الوجوه ؟!
ضاعت كل الوجوه..
تلاشت كل الملامح...
لا عيون ....لا أنوف...لا أفواه..لا ملامح.
دفنت خوفى في أعماقى وصافحت كل الجموع كانوا جميعاً بلا وجوه.
ولمحته هناك ...خلته يضحك...
قديماً كانت البشاشة على وجهه والسعادة ترفرف من حوله.
الآن أضحى غير عابئ غير مهتم .
قديماً كانوا يضحكون..يتسامرون ...ومن حوله كانوا يتجاذبون أطراف الحديث مبتسمين...
حين لمحت الأشياء اللعينة تركض نحوى ..دبت في جسدى قوة شديدة وواصلت الزحف نحوه بلا عون ، ولما اقتربت منه ، تطلعت إلى وجهه ، أختلسه في صمت مؤلم.
داهمنى الماضى وتداعى الأمس ..الحاضر ..الغد ...وتداعيت.

اليد اللعينة كانت تقترب منى ، تحاول أن تقتلعنى، أن تفتك بعنقى، وبينما كل اللا وجوه تحاصرنى ، كان الخوف يشق طريقه في قلبى.
عندما اقتربت منه ..لم تكن في عينيه دموع ، همست أين السلوى؟!
أين النسيان؟!... ولم يسمعنى... ولم أسمعنى...ضاقت المسافة واقتربت خطانا...
مددت يدى رويداً ...رفع وجهه المنطوى.
تقابلت الأعين ثانية....
أبحث عن يدى .
أين يدى؟!!
تاهت يدى...
ضاعت يدى..
تلاشت تماماً ..
ولكننى اقتربت ..
جعل يتفرس في ملامح وجهى في رفق.
لازلت أبحث عن يدى ...
تقابلنا...
تلامسنا..
وتهاويت بين أحضانه وبكيت

طريق النخيل

نوماً نذرع الطريق جيئة وذهاباً ... خاصة طريق النخيل الطويل.
نلهو فندفع بعضنا البعض من فوق جبل الرمل العالى، دون أن نعبأ بالمقابر البدائية المنتشرة حولنا...
وفى الظهيرة نلقى بأجسادنا في مياه البحر أمام شجر الجوافة بعد أن نخلع ملابسنا.
وقبيل الغروب نتسابق عدواً إلى دورنا..
كنا نفعل الكثير دون أن يداهمنا التعب أو يعرف الوهن طريقه إلى أجسادنا الفتية.
ذات يوم فلجأنا زياد بقوله :

- سأتسلق تلك النخلة الشامخة.

شهقت قمر وتململت:

- حقاً يا زياد !!

لما لمحت علامات الإعجاب تتسرب إلى وجه قمر وإلى وجوه كل الفتيات والفتيان لم أتمالك نفسى.. صحت في وجهه :

- يالك من أخرق، أهذه نخلة.

وهمس زياد:

- أرنا شطارتك إذن .

شعرت بالارتباك الشديد يعصف بى ، حقاً كانت النخلة عالية شاهقة.
تلفت حولى باحثاً عن مهرب...كانت الجموع تتزايد رويداً ، ووجه قمر الصبوح مازال حائراً بين وجهى ووجه زياد.
تلعثمت قليلاً ثم تمالكت نفسى وصحت:

- سأصعد هذه.

أشرت بيدى وقلبى يرتجف إلى نخلة عم رضوان.
صاحت قمر في خوف:

- أيها المجنون ، الأحمق.

ضحكت ...قلت:

- أ لأنها أعلى نخلة في حقول الجوافة الممتدة حتى شاطئ البحر؟

وصاح الجميع في رعب:

- ليس لهذا فقط.
- لماذا إذن؟

لم تجب قمر أو حتى زياد ولم يجبنى أحد ممن كانوا حولى !!! كانوا يعلمون جيداً أننى على وعى ودراية تامة بكل أسرار نخلة عم رضوان ، وبعد برهة طويلة من الصمت المريب صحت بهم:

- كفى جبناً وتخاريفاً ، سأصعدها رغماً عنكم، ورغماً عن أى شئ وليحدث ما يحدث.

وصرخت في إصرار أشد لعلى أبدد كتلة الخوف المترسبة في أعماقهم وأعماقى:

- سأصعدها.

***

عم رضوان ذلك الوجه الشاحب كثير التجاعيد....
عيناه ناعستان ، ويداه حانرتان كأن بهما جل تعب السنين
كنا جميعاً نجلس حوله ، ننصت إليه وهو جالس متكئ بظهره إلى نخلته السامقة. لم تكن نخلة عادية، كانتا نخلتين متشابكتين لهما جرع واحد !!

كل أهالي المندرة بشقيها البحرى والقبلى كانوا يصرخون في وجو هنا أن نبتعد عن تلك النخلة المريبة، وما فتأت أمى تحذرنى منها ، خاصة بعدما أخبرتها الغجرية العجوز بأنها نخلة مسحورة لأم وابنها .... وأن جنية البحور السبع ، ابنة ملك الجن الأحمر كانت عاشقة لرجل من أبناء المندرة ولما رفض الزواج منها وتزوج بأخرى من بنى جنسه تركتهما الجنية حتى أنجبا طفلهما الأول ، وفى اليوم السابع أعلنت عن غضبها بتحويل الزوجة ورضيعها إلى تلك النخلة المتداخلة !!!

كانت الأقاصيص كثيرة وشيقة بين أهالى المندرة والمنتزه وحتى أبى قير وكنا نسمعها ونحن صبية فيتملكنا الخوف والهلع لأيام معدودات وبعدها ننسى كل شئ ونهرع ثانية إلى عم رضوان وحكاياته الطويلة اللذيذة التى لا تكاد تنفد قط عن أولاد الليل ومغامراتهم مع المأمور وعساكره ... وكيف أنه ذات مرة ، قام بإخفاء أحد رجال الليل في تلك الطاحونة المهجورة ...عم رضوان لم يكن يحكى لنا وإنما كان يحلق بنا في عالم غامض مثير...

يداه ترتجفان في انفعال بالغ، بينما عيناه تجحظان إلى الخارج في المواقف العصيبة وكأنه يتقمص شخصية البطل ...ونحن نتطلع في ريب إلى طاحونة الأشباح تلك الطاحونة العتيقة الرابضة على شاطئ البحر !!!

وتتداعى لنا صورة رجل الليل وهو يصارع العفاريت والشياطين التى تسكنها ليلاً فيصرعهم هو في بدء الامر وكأنه مارد جبار ، ويصرعونه هم في النهاية ، بعد أن يتكالبوا عليه من كل فج ...

***

قالت لى قمر في دلال:

- أتذكر ؟
- أذكر ماذا ؟
- منذ أكثر من عشر سنوات ، يوم تحديت زياد .

وقالت لى أمى في سخرية:

- أيها الأحمق ...من تكون قمر هذه التى تريد أن تتزوجها ؟
- ولكننى أحبها !!
- حب ...حب ماذا؟
- مجرد خطبة.
- أنسيت دراستك في الجامعة.
- لتكن مجرد قراءة فاتحة.
- الجامعة.
- زياد لن ينتظر ...سيخطفها يا أمى.
- الجامعة.

***

في الجامعة لم يكن ثمة أصدقاء بالمعنى الحقيقى ...
يوم إمتحان البكالوريوس استيقظت مبكراً لأراجع بعض دروسى ...لاحظت اختفاء زميل الحجرة، يبدو أنه قد خرج مبكراً ، لم أعبأ بذلك كثيراً ...
تذكرت عشاء الأمس اللذيذ الذى ساهم في ثمنه ولم يتذوقه وعندما سألته :

- لماذا لا تأكل معى ؟

أجابنى في حنو بالغ :

- أنت تمر بامتحانات عصيبة.

و همست في أعماقى : يا له من عشاء لذيذ ويا له من زميل طيب.
قبل أن تدق الساعة الثامنة أعددت أدواتى وتحركت محاولاً الخروج ولكن عبثاً !!!
كان الباب يرفض الرضوخ لمحاولاتى المتكررة ..
أدركت لتوى أنه مغلق ... بحثت عن المفتاح ، ولم أجده في أى مكان بالمنزل.
طاش صوابى ......فلت زمام نفسى ...في محاولات يائسة طفقت أهوى بكلتا يداى على الباب الموصد محدثاً ضجة وصراخاً .
لم أتمالك نفسى ..
بكيت .

***

سألتنى ليلى زميلتى في العمل:

- من تكون قمر هذه ؟!

ضحكت ولم أنبس.

- أ كنت حقاً تحبها؟

نظرت إليها في دهشة ثم همست إلى أعماقى في حزن:

- ولازلت.

***

عندما عدت إلى منزلى في القاهرة قالت لى أمى :

- صديقك زياد في الداخل .

فرحت كثيراً واندفعت إليه مرحباً .
تطرقت بنا الأحاديث إلى حقول الجوافة ، والبرتقال وإلى كل ذكريات طاحونة الأشباح ، وطريق النخيل الطويل ، ومساحات الرمل الشاسعة الممتدة حتى شاطئ البحر ، والمغطاه بالزهور البرية الملونة ، وثمار التين الشوكى الحمراء اللاذعة المذاق والتى كثيراً ما أدمت أصابعنا، وحكايات عم رضون وأولاد الليل ونخلته العجيبة وقبل أن ينصرف همس في أذنى :
- أنت مدعو لحضور حفل زفافى على قمر.

***

قالت لى ليلى في ضيق:
- ثلاث سنوات خطبة ولم نتزوج ؟!
- وماذا بوسعى أن أفعل ؟
- هذه مشكلتك.

***

الخليج العربى!!!
هناك كنت أقبل أى عمل أكلف به ....
مجرد كاتب بسيط أو حتى بائع في محل بقالة وكان الكفيل يتقاضى نصف راتبى رغم ضآلته.
عندما علم صاحب محل البقالة بأننى أحد خريجى الجامعة المصرية ، طردنى !!!

***

غادة .... ابنتى !!!
عندما جاءت إلى هذا العالم لم يكن ثمة بد من العودة إلى الخليج العربى ثانية ... في هذه المرة كنت أعمل في مؤسسة كبيرة ، كنت أنا مديرها بينما كان رئيسى المباشر رجل خليجى يصغرنى بسنوات عديدة، تنحصر حياته كلها في النصف الأسفل من جسده ، وهو يبدأ يومه بالخمر وينهيه به ...
قالوا لى عنه حكايات كثيرة وخاصة محاولاته المستمرة في الحصول على الشهادة الإعدادية وكيف أنه كلما ذهب إلى الامتحان تعمد المراقبون أن يضيقوا عليه الخناق وذلك نكاية فيه وعقاباً له على إمعانه في إذلال زملائهم من المصريين.
وضحكوا جميعاً ولكننى لم أضحك !!!

***

خطيب غادة طبيب ذو خلق كريم من أسرة طيبة ولكن حالته المادية لم تكن تسمح له بالزواج إلا بعد مضى سنوات طويلة من الكفاح...

- لابد أن نفسخ تلك الخطبة.

هكذا قالت لى زوجتى ولما لم أنبس استطردت قائلة :

- لقد تقدم لها من هو أغنى منه بكثير.
- ولكنهما يحبان بعضهما البعض.
- وما جدوى الحب ، أيجلب لهما منزلاً أم يصنع لهما سيارة .

تذكرت قمر فصرخت في وجهها :

- لا شأن لك بهما.

***

أثناء ركوبى لسيارتى الفارهة ...تذكرت عم رضوان بوجهه الشاحب النحيل ...المرة الأخيرة التى رأيته فيها كانت منذ عشر سنوات ، وقتها كان قد فقد بصره تماماً .

- أ تتذكرني يا عم رضوان؟

وبعد برهة من التفكير ، همس:

- أنت .
- نعم هو أنا .
- أتدرى كم مرة أتلفت لى محصول الجوافة ، كنت تسقطها ولا تأكلها.
- لم أكن وحدى يا عجوز.
- أتذكر يوم سقطت نظارة أحد زملائكم الطبية بين فروع الأشجار ، وعندما حاولتم أن تأخذوها كنت أنا قد لمحتكم؟
- هذه نظارة زياد ، الذى طفق يبكى كثيراً خوفاً من أبيه وحزناً على ضياعها.
- ويومها أعدت إليكم النظارة وعقدت بينى وبينكم إتفاقاً وهو أن ...
- وهو أن لا نقوم بعد ذلك بسرقة حبات الجوافة التى تحرسها، على أن تحكى لنا العديد من حكاياتك الشيقة ، ومن يومها ولم نفترق عنك أبداً .

استيقظت من ذكرياتى على صوت سائق السيارة وهو يفتح لى الباب الخلفى قائلاً :

- اتفضل يا بك.

***

كانت أمي لا تفتأ أن ترجوني أن نذهب إلى مرتعنا القديم ،
ولكنني كنت في كل مرة أقول لها:

- أنت تعلمين جيداً أنني مشغول في عملي بالجامعة .
- لمدة أسبوع واحد فقط.
- والجامعة.
- ليكن إذن يوماً واحداً لا غير.
- والجامعة.

***

أحفادي يملأون البيت مرحاً وحركة !!!
قال لي أصغرهم:

- أريد بعضاً من هذه الأسنان التي تمتلكها.

فضحكت كثيراً حتى آلمتني معدتي.
صرخ في وجهي:

- أنظر كل أسناني مسوسة ، وأنت تمتلك كل هذه الأسنان ...أعطني بعضاً منها.

لما عبست في وجهه ، قال لي:

- لا تكذب علي ...رأيت أسنانك الكثيرة في كوب على طرف حوض الحمام.

قلت له محذراً :

- إياك وطقم الأسنان.

***

في طريق عودتى إلى دارى القديم شرق قصر المنتزه ،
باغتتنى رائحة البحر المنبعثة من مزيج عجيب لمياه الصرف
ومخلفات السفن المازوتية وعفونة الطحالب وبقايا سمك ميت.
لم أجد طريق النخيل الذى كنا نسير فيه معاً ...فقط ثمة طريق
أسود من الأسفلت !!!
بحثت عن جبل الرمل العالى والمقابر البدائية المنتشرة حوله ،
وهناك وجدت مدينة كاملة مبنية على احدث طراز....
محلات ملابس وحوانيت أطعمة ومعارض للسيارات
والتليفونات المحمولة ونوادى للفيديو ومحلات للعصير
وكافيتريات ودور للعبادة .
بحثت عن تلك الفيلات البديعة البناء ذات الطراز الأوربى ولم
أجد سوى ناطحات للسحاب ممتدة شرقاً لتعبر شريط السكة
الحديد ولتتوغل لمساحات شاسعة مبتلعة مسرح ذكرياتى.
تداعت أيام الصبى الغارقة في زرقة مياه البحر ورائحته
الطازجة المشبعة باليود المنعش.
تذكرت يوم كان الشق القبلى من المندرة مجرد مساحة ضيقة
تمتد بمحازاة شريط السكة الحديد...
بحثت عن الطاحونة العتيقة ...كانت محاصرة بالأبنية الشاهقة
... تتوارى تماماً خلف ذلك الفندق العملاق ذى النجوم
الخمس...
تذكرت النخيل التى كانت تملأ المكان بهجة وسعادة ..
تذكرت يوم فشلت في صعود نخلة عم رضوان.
كدت أبكى ولكننى تمالكت نفسى .

بحثت عن عم رضوان ...قالوا لى أنه هناك عند نخلته العجيبة ، وعندما ذهبت لم أجده !!! ولدهشتى وجدت زياد ، كان يجلس ومن حوله بضع أطفال وهو غارق في حكاياته لهم عن ذلك الشيخ صاحب تلك النخلة والذى خطفته جنية البحور السبع وبعد أن عاقبته بمسخ زوجته وابنه وتحويلهما إلى تلك النخلة العجيبة ، هبطت به إلى أعماق البحر حيث يقطن والدها ملك الجن الأحمر ورعيته من العفاريت والجان.

ولم ينس زياد أيضاً أن يحكى لهم عن ذلك الصبى الصغير الذى حاول يوماً أن يصعد تلك النخلة.

***

بحثت عن قمر كثيراً حتى أعيانى البحث ، وعندما وجدتها صرخت:

- قمر ...
- ماذا تريد؟
- كيف أحوالك يا قمر ؟
- أنا لست قمر ، أنا حفيدتها.

بهت قليلاً ، ولكننى تماسكت :

- أين قمر يا ابنتى ؟
- لقد ماتت منذ زمن طويل .

***

عندما اقتربت من رضوان ... رأيته خلف غلالة ضبابية كثيفة .. كان بالنسبة لى شيئاً باهتاً،فقط كانت المسافة بيننا تتباعد !!! مددت يدى إلية وبينما كان هو يهبط إلى أسفل ... يهوى إلى أعماق البحر ، كنت أنا أصعد ...
أصعد .. وأصعد إلى أعلى.

صـــــــفر

صفر

أبى واحد..
أصدقائى اثنان..
أحبانى ثلاثة...
معارفى عشرات..
وأنا صفر !!!
وأولئك الذين يمنحونا الدفء ...الضوء ، أين هم ؟!
ضاعت كل طرق الحياة المؤدية إلى بداية واحدة حقيقية ، ولم يتبق سوى السراب...
الحلوى ، البسكويت ، الشيكولاتة، الفاكهة، الخمر ، والنساء ....!!!
ادفع ...تأخذ ...تملأ كل جيوبك بالعديد من القطع الصغيرة والجميلة..
وفى السيارة ستجدها هناك ، تبتسم لك في رقة وتتلوى بين أصابعك وكأنها سيجارة تحترق في شغف.
اسحب ، اشرب ، تجرع من متع الحياة..دعك من صمت أيامك وقسوة أحلامك.
هذه الفتاة تبتسم لك ، قبلها ولا تخش شيئاً ، وهذا الرجل يكشر لك عن أنيابه، ادفعه بقوة في صدره ، ولا تعبأ بصراخه أو بأناته المدوية.
هؤلاء يكيدون لك كيداً عظيماً ...دعك منهم واصفع أول من يقابلك ، صح في وجهه:
أنا اعلم كل شئ عنكم ... وكل أسراركم وحيلكم لم تعد تعنينى في شئ قط !!

دعك من البداية، أو حتى من النهاية!!
لا شئ يعوقك عن الحركة ...عن المضى ...عن الطيران.
اصعد إلى الطابق الأخير وألق بنفسك من النافذة..لا تعبأ بجزع زوجتك الخادع أو بكاء أطفالك الدائم أو حتى تحذيرات هذا الشرطى الملتاع في الشارع.
هيا .. اقدم ولا تتريث أو تتراجع...
فأنت واحد ..وهو واحد...وأنا لازلت صفراً !!!

المحتـويات

شريف محي الدين إبراهيم

عضو اتحاد كتاب مصر

عضو هيئة الاداب والفنون والعلوم الاجتماعية

صدر له :

أحذية وكلمات - قصص قصيرة 1998

طائر على صدر امرأة – رواية 2000

أصحاب الملامح الباهتة – رواية 2001

رجل الخوف – مسرحية 2005

الحب والوهم – مسرحية 2005

كلاب المدينة - (تمثيلية إذاعية) 2006

أعدها للإذاعة : محمد أبو المعاطى

تحت الطبع : خارج الحدود (رواية)

الجوائز :

جائزة نادى القصة – قصة قصيرة – 2004

الجائزة الكبرى – مجلة النصر – قصة قصيرة -2005

جائزة الثقافة الجماهيرية – الاسكندرية – قصة قصيرة 2006

نشرت معظم اعمال المؤلف فى الجرائد و المجلات المصرية والعربية

العنوان / الاسكندرية – المندرة البحرية – ش سيدى كمال – فيلا نصر العزب

تليفون / 035499110
موبيل / 0105509755